

محمد نجار الفارسي

هكذا إسلامي

مكتبة الآب

٤٤ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت. ٢٨٠٠٠٨٦٨

محمد نجار الفارسي

هذا إسلامي

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨

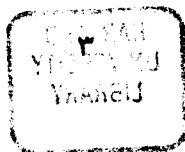
الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾
صدق الله العظيم. [الشورى: ١٣].



إهداء

إلى العقلاء . . .

إلى المفكرين . . .

إلى كل ذى حِلْمٍ وَرَوِيَّةٍ . . .

إلى كل هؤلاء الفارّين إلى الحقيقة والساعين إليها.

م. ن. ف

مقدمة

كثرت فى الآونة الأخيرة الأقاويل عن الإسلام، وإلصاق التهم جزافاً بهذا الدين الحنيف، ونعت معتنقيه بالإرهاب والتخلف والرجعية والهمجية والحجرية، وسادت هذه المغالطات وراجت فكرتها فى جميع أنحاء العالم، الراكب فوق موجة التقدم والتحضر، واللاهث - مقطوعة أنفاسه - وراءها من أقصى الأرض إلى أقصاها، وهذا يرجع إلى ماكينات الإعلام الصهيونية بأنواعها المختلفة، التى جعلت المعمورة كقرية صغيرة، حتى وصل الأمر بنا كمسلمين أن يصدق هذه الأقاويل المغرضة الوافدة إلينا من الغرب وتتناقلها، بل شاع فى عقر دارنا - الخلط دون تفريق بين الملتزم والمتطرف - من يطلق لحيته ويرتاد المساجد يوصم بالإرهاب والتطرف، وبالطبع يرجع كل ذلك إلى التشويه والنقل المأفون من الإعلام الغربى نقلاً حرفياً بالضمّة والفتحة والكسرة، وتأثرنا بجحافل الحملات الإعلامية الصهيونية المثابرة، ولنا مع أثرها على العالم وقفة أخرى.

ومما زاد هذه الفكرة - فكرة التطرف - شيوعاً الاستغراب، نعم استغراب المجتمع الإسلامى من إحياء للسنة إلى اتباع للسلف، إذ إنهم يندهشون لكل فعل يبعثه السلفيون - كما

يطلقون عليهم - فيقولون: رجعيه .. دروشه .. تشدد ..
تعصب .. إلى آخر هذه الكلمات المترهلة .

ولم ينتهوا إلى هذا الحد، ولكن أطلقوا عليهم القاباً كالسلفيين
- من السلف - والأصوليين - من الأصل، ولا ريب أنه قد بزغ
متنطعون بين هؤلاء أشاعوا فكرة التحجر والتصلب العقلي،
وبعض آخر بمجرد أن يحفظوا حديثين لمحمد ﷺ وآيتين من القرآن
ينفردون بالخطابة بين الناس، ويرددون الأحاديث والآيات دونما
إدراك لمقصدها، ولا يتورع أحدهم عن شرح الحديث وتفسير
الآية، ويقول إنه اجتهد مع جهله أصلاً بشروط الاجتهاد.

وفي هذا الجو الكئيب المظلم المتخبط بدت الفتاوى الدينية
تنهمر فوق رؤوس العباد، فهذا يحرم وهذا يحلل وهذا يكره في
مسألة واحدة، في حين ثار جدل عقيم حول اتباعنا الحضارة
الغربية المادية أم لا، ومن ثم انفجرت الأسئلة على الأسئلة
وانتشرت كالنار في الهشيم، من عينة: هل ركوب السيارة حرام؟
هل السلاجة حرام؟ هل التلفزيون حرام؟! بل والأعجب: أكل
الخيار، ما حكم الدين فيه؟! والملابس: البنطلون والقميص
واللبدة؟! ورابطة العنق ما حكمها؟ وبدأت نوعية هذه الأسئلة
المتافهة بسبب جمود قلة من المتنطعين المتمسحين في السلف

الصالح، لذلك أشاع الناس أن السلفيين يحرّمون كل ما هو مستحدث وقادم من الغرب الكافر.

وهنا تحضرني دعاة قيلت في هؤلاء الحمقى الذين لا يتورعون عن التحريم والتحليل دون رويّه:

قيل إن رجلاً واعياً دعا مجموعة من هؤلاء المتحزلقين المتفقيهن إلى غداء في بيته، وعندما لبّوا الدعوة وصفّ لهم الطعام على المائدة، اندهشوا لأن صديقهم يأكل على مائدة فأخذوها وقاموا بتحطيمها خارج البيت، عملاً بالحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره». فسألهم مضيفهم عما فعلوه، فقالوا بلا خجل:

- لم يأكل النبي ﷺ على مائدة من قبل، فخرج الرجل حانقاً وفي غيظ شديد ليرى حطام مائدته، فلمح دراجات تخصم تستند إلى حائط بيته، فسكب عليها بنزيناً وأشعل فيها النار، فخرج الاخوان يهرولون ويتصايحون:

- يا أحمق ماذا تفعل؟!!

فرد عليهم وابتسامته تعلو وجهه وقد بردت ناره:

النبي ﷺ لم يركب دراجة من قبل. انتهت.

وفي ظل هذا التخبط السائد التقف أفراد يتربصون بالإسلام

زلات وهنات تابعيه ليشهدوا العالم الخارجى على تخلفهم؛
فالتقطوا هذه الأمور الغريبة وأيضاً المفتعلة بتحريض منهم؛ كما
حدث بعد حادث مركز التجارة العالمى بأمريكا، وقد شاهد العالم
لقطة لأطفال من العرب يرقصون ويهللون على إيقاع الانهيار
والصراخ؛ ليثبتوا للعالم عدوانية وبربرية هذه الشعوب الهمجية
التي لا تستحق الرحمة، وليبرروا أفعالهم الشائنة، وبثوها عبر
إعلامهم، وهى النقطة التي توقفنا عندها آنفاً وأرجأناها لنوضح
مدى تأثير الاعلام الصهيونى على المجتمع الدولى .

ولابد أن نلقى الضوء أولاً على الحركة الصهيونية: الصهيونية
حركة عنصرية أخطبوطية تتشكل على حسب ظروفها ووقتها،
وتستتر وراء الدين اليهودى لتستحوذ على مقاليد العالم، وذلك
بخطط محكمة التنفيذ، وعلى مراحل زمنية متفاوتة، فى
استمرارية ومثابرة تدعو للعجب .

وإذا تساءلنا: لماذا اليهودية بالذات اتخذتها ساترا لعنصريتها،
فلماذا لا تستخدم مثلاً المسيحية أو البوذية أو الكونفوشيوسية . .
لماذا اليهودية بعينها؟ نقول .

- لأن اليهودية دين منزل من قبل الله باعتراف الدينين
الساويين الآخرين، لذا فإن ثمة تعاطف مع معتنقيه، ولاسيما

بعد رواج ما يسمى بمعاناة الاضطهاد، وتشرذمهم فى بقاع العالم دون وطن يحتويهم .

- ولأن هناك أرضاً موعودة تنتظرهم تملأ صفحات التلمود، ولا ينقص اليهود سوى المحرك، ووجدت الصهيونية فى نفسها المحرك .

- ولأن هناك نخبة من أثرياء العالم اليهود لا يستهان بثقلهم الاقتصادى وما لهم من تأثير على اقتصاديات الدول، وفى سبيل وضع حدٍ لمآسى اليهود لن يألوا جهداً بقرص آذان الحكومات أو يضمنوا عليهم بالمال .

- ولأن هناك زعماء يهود وأصحاب سلطات فى بلاد الله الواسعة، القوية النفوذ ستساندهم وتدفعهم دوماً للأمام .

- ولأن فى التلمود تعاليم كثيرة تتماثل وبرتوكولات الصهيونية من انتهازية وعنصرية فتاكة .

وبذلك جميعاً شرعت الصهيونية تشق طريقها؛ فأحكمت السيطرة على اقتصاد الدول، وبالتالي فرضت عليها آراءها، فأضحت كالشوكة تقضُّ مضاجعها، وهكذا خنعت لها الحكومات .

ورفعت الصهيونية المنحطين فكرياً إلى مصاف المفكرين
العظماء، ودهست بنفوذها وجاهاها كل من يعترضها ويستبين
حقيقتها.

ولم تكتف المنظمة الصهيونية بذلك، بل سيطرت على آلة
الإعلام بأنواعه المختلفة: من صحف وإذاعة وتلفزيون وسينما
ومسرح، عندما استشعرت بحاستها المدهشة أن ثمة عصر قادم
يصبح فيه الإعلام كل شيء وفوق كل شيء، فهو تعبئة العالم
الخارجي والداخلي، وهو ترسانة السلاح في الحرب النفسية التي
قد تكون أشد من النزال ضراوة.

فبالإعلام جعلوا من فكرة عابرة قضية ترهف لها الأذان،
وتدمع لها الأعين، وتوجل لها قلوب العالم، مع أن هناك شعوباً
في العالم سُحقت ظلماً ولا تزال غائبة عن أعين الضمير الإنساني
والمجتمع الدولي. كالهنود الحمر مثلاً، الذين ظلوا يبادون على
مدى مئات السنين مع طمس تاريخهم ومعالمهم وآثارهم وتذويبهم
داخل المجتمعات الأمريكية - الكوكيتل - وتصويرهم في هوليوود
لا كأصحاب أرض يدافعون عنها؛ بل كالرعاع القساة، وأنهم لا
يعيشون إلا على النهب والسلب، أما البيض أصحاب البرانيط
فهم أصحاب القلوب الرحيمة الذين يدافعون عن أنفسهم. لِمَ

ذلك؟ لم طوى التسيان قضية الهنود؟ أقول وبثقة لفقدانهم آلة الاعلام.

لنرى اختلالاً غريباً وتكذيباً وقبحاً للواقع ولحقائق التاريخ، ولكن صدق العالم وآمن بما يمليه عليه الإعلام الصهيوني. أما بالنسبة للعرب فكان تخطيط الصهيونية الاعلامي كالآتي (*)

(١) عملية تشوية إزاء العرب

(٢) عملية اجتذاب صديق أو مؤيد أو على الأقل محايد.

(٣) عملية متابعة لتحليل ومواجهة رد الفعل.

وقدّمت الصهيونية نفسها للعالم على الأسس الآتية:

(١) إسرائيل حقيقة دولة قائمة ولها حق البناء.

(٢) إسرائيل ترتبط حضارياً بالوجود الغربي.

(٣) إسرائيل تعبر عن العقائد السياسية المعاصرة.

(٤) إسرائيل تؤمن بمبدأ العالمية.

(٥) إسرائيل دولة عصرية تمثل أقصى مراحل التقدم.

(*) الدكتور محمود دياب - إسرائيل بين البداية والنهاية

(٦) إسرائيل تنتمي إلى منطقة الشرق الأوسط جغرافياً وتاريخياً وحضارياً.

(٧) منطقة الشرق الأوسط لا يوجد بها سوى جماعات وعقائد تعبر عن أقصى مظاهر التخلف الحضارى والنظامى والثقافى". وهكذا كان للإعلام الصهيونى دور رهيب فى تطوير الفكرة الصهيونية، والتأثير على المجتمع الغربى من خلاله، ومن ثم انحيازه الأعمى إليها.

وبذلك أضحى الإعلام العالمى بوقاً يردد تعاليمهم وأفكارهم، فوصفوا الإسلام بأساطير مفرقة فى الخيال والضلال، حتى ترسخت فى العقلية الغربية بأنه دين عدوانى ذو نزعة ديموية، وما تزال حتى يومنا هذا تدرّس للأطفال فى المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين، وكذلك شاشاتهم السينمائية تفجعنا بين الحين والآخر بتصوير شخصية عربية أو إسلامية وهى فى حضيض التخلف والهمجية، ووصمها بالإرهاب والتشدد الدينى اللامعقول وعشق الدماء واغتصاب النساء. ولا هم لها سوى الجنس، وكذا تصوير حال المرأة فى المجتمعات الإسلامية كأمة لا دور لها فى الحياة سوى قضاء الحاجات الشهوانية، نقل حرفى من كتب الشرق وأساطيره كألف ليلة وليلة وحشرها وعرضها على الساحة الإعلامية كأنه واقع ملموس

وكما يقول المثل العامي عندنا: (الزن على الودان أقوى من السحر) فقد سحر الصهيانة الأبواب لكثرة ما يروجونه من تضليل تاريخي وخلط للعقيدة بالجنس، لدرجة أن هناك ساسة ذاتعي الصيت والشهرة ومثقفين وعلماء ومن جميع الطبقات يؤمنون بالتفسير الصهيوني السياسي - المحاط بغلاف ديني - لعقيدة هرمجدون، والادعاء باحتلال فلسطين وإبادة شعبها لكي يهدوا الأرض - والقدس بالذات - لعودة السيد المسيح.

انقياد للصهيونية غريب مثير للدهشة، فلا يرى العالم إلا ما ترى الصهيونية، ولا يسمع إلا ما تسمع، فهي نظره وأذنه وأنفه وكل شيء. وبالطبع في هذه الحالة كل تفجير يحدث أو عمل إرهابي في العالم أول ما تشير الأصابع تشير إلى المسلمين والعرب، ويعود هذا إلى هيمنة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، وكذلك إجادتهم فن العبث في رواكد المياه القذرة، وصبغ الأحداث بالألوان التي تراها متاسبة. ولهذا نلمس حملات العداء الغربية ضدنا، فهم اعتبروا الإسلام العدو الحالي بعد انهيار الشيوعية - تطبيقًا لنظرية هتجتون - وما حدث في البوسنة والهرسك والشيخان وفلسطين يرفع النقاب عن مدى بغضهم لنا، فها هم الصرب يعلنون لأوروبا أنهم في مهمة تاريخية لإنقاذ

أوروبا من المد الإسلامى الأخطر - ومن بعدهم بوش الابن يردد بعنجهية (الصليبية الجديدة)، ومن بعده رئيس وزراء إيطاليا بيرلسكونى - وبذلك اكتفت أوروبا بالتنديد والشجب لأكثر من عامين حتى ينتهى الصرب من مهمتهم التاريخية.

إذن هذا التعصب الغربى والكره للإسلام وتابعيه يعبر عن مدى سوء الفهم والخلط الذى أحدثه الكتاب المأجورون والإعلام الصهيونى.

ولكن اللائمة تقع فى النهاية علينا نحن كمسلمين وكعرب، فقد اكتفينا بدفن الرؤوس فى الرمال وظللنا فى سبات عميق لا نحرك ساكناً، وكأننا ننتظر هبوط ملائكة من السماء تصحح أوضاعاً سلبية كنا سبباً فى إيجادها على الساحة.

وهكذا تركنا للصهيونية الساحة خالية إلا من نفسها تعيش فى الأرض فساداً وتعبث بالعقول.

وبهذا التقصير المزرى منا والتضليل الصهيونى، شجبت صورة الإسلام الحقيقية، وبهت بياضها الناصع فى أعين العالم.

ولذلك أتجراً وأقدم هذه المحاولة المتواضعة بين أيدي القراء لتكون خطوة لفهم تعاليم الإسلام. وقد يلاحظ القارئ أننى

أكثر من سرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فصول الكتاب وذلك لأنها نبع دستور المسلم ونبراسه الذي يهتدى به، ومن ثم ليظهر جنوح بعض المنتسبين إلى الإسلام، وأنهم لا يمتُّون إلى حقيقة تعاليم ديننا بصلة، وأخيراً لنطرح السؤال هذا ديننا فماذا رأيتم في تعاليمه؟

والله أسأل أن ينفعنا به في الدنيا والآخرة

م.ن.أ

ربيع الأول ١٤٢٣ هـ

مدينة العاشر من رمضان

النبي والرسالة

محمد رسول الله

كان مجتمع العرب الجاهلى قبل الإسلام يزهو ويفخر بالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد وعزة النفس، وكانت تلوح فيهم الفطرة البدوية؛ إذ إنهم لم يتلوثوا بمكائيد وسقطات الحضارة، لذلك وضع فيهم الصدق والأمانة والنفور من الخداع والغدر وغير ذلك من الأخلاق الحميدة.

بيد أنه قد شاع في أوساط كثيرة بينهم اختلاط الرجال بالنساء دون تحفظ، ولا يعبر عن هذا الشيوع إلا بالدعارة والمجون والسفاح. إذن كان هناك خللاً اجتماعياً حتى أنه روى أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء(*) : نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيُصدقها ثم ينكحها، ونكاح أن الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها ولا يَمَسُّها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى أرسلت إليه لتستبضع منه، وكانوا يفعلون ذلك رغبة

(*) الرحيق المختوم.

فى نجابة الولد، ويسمى نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر؛ أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: «قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدتُ وهو ابنك يا فلان» فتسمى من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها. ونكاح آخر: أن يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة التى لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن رايات على أبوابهن تكن علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافه ثم يُلْحِقُوا ولدها بالذى يرون، ولا يمتنع من ذلك».

فقد كانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط، فكانت الأغلبية الساحقة لا تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة.

وكانوا يثدون البنات خشية العار والانفاق، ويقتلون الأولاد خشية الفقر والإملاق.

وكان الجهل يضرب جذوره فيهم، كما أن الخرافات بلغت شأواً خطيراً، فيستقسمون بالأزلام، ويزجرون الطيور حين إقدامهم

على أمر لا يعرفون خيره من شره، والمرأة تباع وتُشتري وتورث
كالمتاع والبهاائم أحيانًا.

وكانوا يسرفون في شرب الخمر ويمتدحون شربها، ويمنحونها
بسخاء لضيوفهم؛ لأنها في اعتقادهم إحدى سبل الكرم، وكانوا
يشتغلون بالميسر، وما ربحوه ينفقوه على المساكين!، وكثرت
المعبودات: هذا وثن من نحاس، وهذا من ذهب، وذاك من
حجر، وآخر من طين، حتى وصلت أعدادها في فتح مكة حول
البيت إلى ثلاثمائة وستين صنمًا، وتعددت أسماء آلهتهم؛ فهبل،
ومناة، واللات، والعزى، وغيرها.

وبين هذا الضجيج الأخلاقي والعقائدي وُلد محمد ﷺ وشب
بين قومه، وكان بينهم كالغريب، كثير الصمت وبه استعان على
طول التأمل وإدمان الفكر واستبيان الحقيقة، فطالع بعقله
الخصب شئون الناس وأحوال الجماعات، فعافت نفسه الخرافات
ونأى بنفسه عنها، وعاش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم،
فما وجد حسنا شاركهم فيه، وإلا عاد إلى عزلته المحببه إلى
نفسه، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا
يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالاً. فكان من بداية نشأته نافرًا
من هذه المعبودات، حتى لم يكن ثمة شيء أبغض إليه منها،

حتى أنه لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى .

ولا شك أن القَدَرَ أحاطه بالحفظ ؛ فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا واتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الإلهية للحيلولة بينه وبين هوى النفس . وروى عنه أنه قال ﷺ (١) : ما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممتُ به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلةً للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمرَ بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا؟ فقالوا : عرس فلان بفلانه ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدتُ إلى صاحبى ، فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلةً أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممتُ بسوء .

وكان النبى ﷺ يمتاز بين قومه بخِلال (٢) ؛ فكان أفضلهم مروءةً ، وأحسنهم خلقاً ، وأعزهم جواراً ، وأعظمهم حلمًا ، وأصدقهم حديثاً ، وأوفاهم عهداً ، وآمنهم أمانة ، فسمّاه قومه

(١) ، (٢) الرحيق المختوم .

الأمين لما رأوه فيه من الصلاح والخصال الطيبة.

وعندما قارب سنُّه الأربعين اتَّسَعَت الشَّقةُ بينه وبين قومه؛ إذ إنه في هذا العمر يكون الشخص في أوج نضوجه العقلي والفكري، كما أن العزلة التي كان قد فرضها على نفسه أنارت له كثيراً من السبل التي كان يخطو عليها قومه في جهالة.

فكان يذهب إلى غار حراء في جبل النور يعتزل الناس بعيداً عنهم على نحو ميلين، ويقضى وقته في التأمل والتدبر، فتتعلق عيناه بالنجوم والقمر والجبال والدواب والهوام والبشر ويتدبر ويتساءل غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك الملهلة، ويتعذب؛ فليس ثمة طريق واضح ولا منهج مجدد ولا قصد يطمئن إليه ويرضاه، وظلَّ هكذا إلى أن حُمِّلَ بالرسالة، فانقضت له الظلمة وأبانت الصراط المستقيم.

وكان منذ صباه - حتى هبوط الوحي - شديد التمسك بالأخلاق القويمة، وبلغت ذروتها بعد تحميله الرسالة، فكان يدعو الناس ويقول(*) : «بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق»، وقيل له وهو في إحدى المواقع: لو لعنتهم يا رسول الله، فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً. وفي غزوة أحد عندما كسرت رباعيته وشجَّ رأسه

(*) إحياء علوم الدين ٣٩٤/٢

وكلمت شفته السفلى جعل يمسح الدم بيده عن وجهه ويقول:
اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

وكان إذا سُئِلَ أن يدعو على أحد - مسلم أو كافر عام أو خاص - عدلَ عن الدعاء عليه إلى الدعاء له، وما انتقم من شيء صنع له قط إلا أن تُتَهَكَّ حرمة الله، وما كان يأتيه أحد حرٌّ أو عبدٌ أو أمة إلا قام معه فى حاجته، وما قال لخدمه «أف» أو «لِمَ فعلت هذا؟ قط.

وكان من خلقه يبدأ من لقيه بالسلام، وإذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف، وكان إذا استقبل الرجل فصافحه لا يتزع يده من يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لَقِيَ أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شدَّ قبضته عليها.

وكان النبى ﷺ لا يُعرف مجلسه من مجلس أصحابه؛ لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس، وما رُئِيَ قط ماداً رجله بين أصحابه حتى لا يضيَّقَ بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسطَ له ثوبه ليجلس عليه، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه،

فيعطى كلٌّ من جلس إليه نصيبه من وجهه وسمعه وحديثه،
فهكذا كان مجلسه حياءً وتواضعاً.

ومن خلقه أيضاً أنه كان أوجز الناس كلاماً، نَزَرَ الكلام،
طويل السكون، لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول إلا حقاً،
ويعرض عن تكلم بغير جميل، ويُكِنِّي عما اضطره الكلام إليه
مما يكره، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه
وتعجباً مما تحدثوا به وخطأً لنفسه بهم.

وكان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة، فهذا
رجل من أهل البادية جاف الطبع لم يقتنع بعدل النبي ﷺ فقال
له: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل، فما أراك تعدل.
وآخر يقول: يا رسول الله اعدل. فما قابل فظاظتهما إلا بلين.
ورجل آخر قام على رأسه بالسيف ويقول له: من يمنعك مني؟
فقال النبي: الله، فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبي وقال
له: من يمنعك مني؟ فقال الرجل مستسلماً: كن خير آخذ. ولم
يرض النبي قتله فخلَّى سبيله بعد نصحه.

وهذه يهودية أئته بشاة مسمومة وعفا عنها. وذات يوم بينما
يقسم قسمة قال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله. فحزن
النبي واحمرَّ وجهه وقال: رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر

من هذا فصير . وكان يقول حباً فى أصحابه . لا يُبلغنى أحد منكم
عن أحدٍ من أصحابى شيئاً ؛ فإننى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم
الصدر

وكان أيضاً أشد الناس تواضعاً ؛ فكان يخصف نعله ويرقع ثوبه
وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم ، وكان يعود المريض ،
ويجيب دعوة المملوك . وكان يكره أن يقوم الصحابة عند مقدمه ،
وكان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم كما لو كانوا كباراً ، وكان بين
أصحابه مختلطاً فيأتى الغريب فلا يدري أيهم هو .

وقالت له زوجته عائشة يوماً : كُلْ - جعلنى الله فداك - متكئاً
فإنه أهون عليك . فأصغى النبى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته
الأرض ثم قال : بل آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس
العبد .

وكان لا يدعوه أحد إلا قال . لييك ، وكان إذا جلس مع الناس
وتكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدّثوا فى طعام أو
شراب تحدّث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم .

ووقف بين يديه رجل يرتعد من هيئته ، فقال له : هوّن عليك
فلست بملك ؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وكان من دعائه: «اللهم حَسِّنْ خَلْقِي وَخُلُقِي» ومن دعائه:
 «اللهم جَنِّبْنِي مَنَكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ». فكانت الآيات القرآنية تنزل
 عليه لتزيده علماً وخلقاً، فيقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

ويقول أيضاً: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
 [الشورى: ٤٣].

وغيرها من الآيات التي تحثه على ملازمة حسن الخلق.

فهكذا كان نبينا في أخلاقه نبراساً يضيء، ويعلم الأمة آداب
 السلوك أو الـ: Etiquette كما يقول الغربيون، ولكنه ليس
 كإتيكيتهم، بل هو تهذيب لا تتدخل فيه نظريات قرائع البشر التي
 لا تلبث إلا حيناً ثم يبدو ترهلها وعدم صمودها في وجه الزمان
 وتقلباته.

وما أوردناه من خُلُقِ رسولنا غيضٌ من فيضه، ومهما أتينا من
 جوامع الكلم لن نصفه كما وصفه من أدبه وأحسن تأديبه؛ حيث
 قال ربنا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

وحثنا الله بعد ذلك لنأتسى به إذ قال ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ
 اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾
 [الأحزاب: ٢١].

إسلامى معناه

الإسلام هو كما قال الراغب الأصفهاني: «استسلام لله في جميع ما قضى وقدر وأن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب»^(١).

ويقول ابن الأنباري في المعنى اللغوي للكلمة:

المسلم: معناه: المخلص لله في عبادته، من قولهم سَلِمَ الشيء لفلان. خَلَصَ له؛ فالإسلام معناه: إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى^(٢) وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة أو إلى المعنى اللغوى، فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير إلى:

- شخص معين كما تشير البوذية مثلاً إلى بوذا، والزرادتية إلى زرادتش

- ولا إلى شعبٍ معيّن كما تشير اليهودية إلى شعب بذاته.

- ولا إلى إقليم أو بلدٍ معين كما تُشير النصرانية.

والدين الذى ينتسب أو يشير إلى شخص معين أو شعب معين أو إقليم معين يتحدد زمنه - ضرورةً - بابتداء الشخص أو

(١) منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمع د عبد الحليم محمود.

(٢) نفس المصدر السابق

الشعب، ويتحدد بالمكان، ولكن كلمة الإسلام لا تدل على زمان ولا مكان؛ فهي لا تشير إلى زمن يحدّها ولا إلى مكان تتقيد به» (*) .

فَمِنْ قَبْلِ قَالَ سَيِّدُنَا نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] .

وقال الله عن سيدنا إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] .

وحينما كان سيدنا إبراهيم وإسماعيل يرفعان قواعد بيت الله الحرام أخذوا يدعوان الله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] .

ووصَّى سيدنا إبراهيم وإسحاق بنيه: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] .

(*) نفس المصدر السابق .

وعندما حضر سيدنا يعقوب الموت قال لبنيه مستفسراً: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال سيدنا موسى لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

ويدعو سيدنا يوسف ربّه قائلاً: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال حواريو سيدنا عيسى: ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وعندما أحسّ سيدنا عيسى من قومه الكفر؛ سألهم: (من أنصاري إلى الله) قالوا: ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وهكذا لم تكن رسالة الإسلام يختص بها جيل من الناس دون جيل، أو شعب من الشعوب، شأن الرسائل التي سبقتها، بل هي رسالة عامة لكافة الناس في كل الأمكنة والأزمنة.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: ٢٨].

ونظراً لذلك جاء الإسلام بتعاليم ثابتة لا تتبدل مع تبدل الزمان والمكان. . ليس لها عمر افتراضى، ولا تبلى مهما طال الزمان، ولا تهلهل؛ لأنها شريعة أحكمها الله الذى هو أدرى بتسيير صنعه.

وكل ما جاء فيها يقصد به حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

وغاية الدين الإسلامى تزكية النفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله، وعبادته، وتدعيم الروابط الإنسانية، وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل؛ ليسعد الإنسان فى دنياه وآخرته. وإذا نظرنا إلى تشريعاته لا نجد فيها ما يصعب على الناس اعتقاده؛ لأن الله لا يريد بنا العسر؛ فكل ما فيه يناسب الفطرة ويساير العقل، فعندما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهل فى هذا الكلام من شىء غير سوى؟! فإنه ينهى عن الفاحشة والإثم والبغى والإشراك بالله، وجعل له نداءً، والتقول على الله بلا علم. فهذا ما ينادى به المصلحون والعقلاء ويدعون

الناس إليه؛ ليتهوا بهم إلى حياة كريمة تصلهم بأعلى درجات الرقى والكمال.

وقد جاء رجلٌ إلى النبي يسأله عن الإسلام، فقال له النبي «أنْ يَسْلَمَ لله قلبك، وأن يَسْلَمَ المسلمون من لسانك ويدك».

وإذا تأملنا أركان الإسلام الخمسة التي هي البنية التحتية للإسلام، وهي الأصول والأساس الذي يشيد على قاعدته صرحُ الإسلام الشامخ فتبدأ أولاً: بشهادة «أن لا إله إلا الله»: وتعني الإيمان المطلق بوحديته وألوهيته، وانفراده على الملكوت وما دونه مخلوق.

وشهادة أن محمداً رسول الله: إيمان وتصديق به وبالرسالة التي جاء بها، ومن ثمَّ اتباع ما جاء به والإعراض عن ما نهى عنه.

ثانياً: إقامة الصلاة: بدايتها: تكبير وتعظيم وتوحيد لله، ثم خضوع وتذلل ودعاء، وقد تفرقت الخمس صلوات على مدار اليوم كله؛ ليكون العبد في عبادة متصلة، وفي هذه الحالة سيكون مستديم النظر في أعماله، فالحساب والعقاب دائماً نُصِبُ عينيه، فلا يظلم أحداً ولا يعتدى على حقوق أحد، وهي فرصة لمراجعة النفس في لحظات الصفاء. وتُتَوَجَّ الصلاة بختامها بالسلام، فأنت

تلقى السلام والمحبة والأمان على يمينك تارة وعلى يسارك تارة أخرى.

ثالثاً: الزكاة: هي تطهير النفس من الجشع، وترويضها؛ لتعتاد على بذل المال طواعيةً لمرضاة الله، وهي تخفيف لآلام الفقراء، وهي رحمة، وهي نزع فتيل الحقد وغضب المطحونين، وهي الرحمة بين الناس وتكافلهم.

رابعاً: الصوم: هو التَّزَهُُّ عن الصفات الإنسانية الشهوانية، والتخلُّق بالصفات الملائكية المتعبدة دون كلل، والزهد عن متع الدنيا؛ فلا طعام، ولا شراب، ولا جماع، وهي نشدان الكمال، وكذلك استشعارٌ لما يكابده الفقراء من الفاقة.

خامساً: الحج: تهذيب بأنَّ الناس سواسيةً كأسنان المشط؛ فكلهم بجليلهم وفقيرهم تجردوا من الملابس إلّا ما يستر عوراتهم، جميعهم يقفون جنب إلى جنب؛ الخفير بجانب الوزير بجانب الرئيس لا تفريق بينهم وكلهم عباد لله، وكلهم بُحَّتْ أصواتهم من التهليل والتمجيد، وكأنهم في أرض المحشر ينتظرون القول الفصل من بارئهم، وهو فرصة للمتكبرين ليروا حقيقة أنفسهم بين هذه الجموع الهادرة، وفرصة لإعادة الحسابات وترتيبها من جديد والصلح مع الله.

وبالتالى فإن جميع الأركان نجدها تحت الإنسان على التفكير
فى اليوم الآخر وما فيه من حساب، ومن ثمَّ تحثُّ العبد على
النأى بنفسه عن الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين.

ويتبين لنا مما تقدم أن الله ما أمر وما نهى إلاَّ لصالح البشرية
والرقى بها بعيداً عن حياة الغابة.

لذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي
الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
[النحل: ٩٠].

إسلامي رحمةً وسلام

رحمة

تقول الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾
[الأنبياء: ١٠٧].

رحمة للعالمين؛ أي جميع المخلوقات، بإنسهم وجنهم
وبهائمهم، فقد سبق الإسلام بمئات السنين دعاة حقوق الإنسان
والحيوان والرفق بهما؛ فكان النبي ﷺ يقول: «مَنْ لَا يَرْحَمِ
النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ». ويقول: «لَنْ تَوْفَّقُوا حَتَّى تَرَاحِمُوا»
ويقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض
يرحمكم من في السماء».

وكان ينهى أصحابه عن تعذيب الحيوان، فها هو ذا ينذرهم
فيقول: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم
تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وها هو ذات يوم يمر على بستان رجل فدخله فإذا جملٌ يشن
وتذرف عيناه، فأتاه النبي فمسح عليه حتى سكث الجمل ثم قال:

مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ فجاء رجل فقال: هذا لى يا رسول الله، فقال له: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ! إِنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِئُهُ.

ويقول أيضاً: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحةً وكلوها صالحةً». وكان يَحُثُّ أصحابه على رحمة الحيوان فيقول: «دنا رجل إلى بئر فنزل فشرب منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه فنزع إحدى خُفَيْهِ فسقاه، فشكر الله له؛ فأدخله الجنة».

وسأله: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟

قال لهم: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ.

وفى الصيد؛ فقد نهى النَّبِيُّ ﷺ عن صيد الحيوان إِلَّا لِمَا كُلُهُ؛ فيقول: «من قتل عصفوراً عبثاً عَجَّ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنِّي فُلَانًا قَتَلْتَنِي عَبْثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنفَعَةً».

وَذَاتُ يَوْمٍ مَرَّ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ وَقَدْ اتَّخَذُوا طَائِرًا هَدَفًا يَصُوبُونَ إِلَيْهِ ضَرْبَاتِهِمْ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا».

وَقَالَ أَيْضًا: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا؛ أَى هَدَفًا».

حَتَّى فِي قَتْلِنَا مِثْلًا كَلْبًا مَسْعُورًا يَهْدِدُ أَمْنُ النَّاسِ وَيُرْوِعُهُمْ وَيَعْتَدِي عَلَيْهِمْ، أَمَرْنَا بِقَتْلِهِ وَلَكِنْ بِالْإِحْسَانِ، بِمَعْنَى لَا نَقْتُلُهُ بِأَدَاةٍ

تطيل زهوق روحه تعذبه وتزیدُ آلامه، وكذلك الذبح مع أنه حلال، ولكن ثمة إرشادات تُتَّبَعُ لذبح البهائم منها مثلاً: ألا يكون الذبح بآلة كالة، وأن تُحَدَّ الشفار بعيداً عن أعين البهائم، وألا نسلخ البهيمة إلا بعد زهوق الروح. ولذلك يقول النبي ﷺ: «إذا قتلتم فأحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وإذا ذبحتم فأحْسِنُوا الذَّبْحَةَ».

وكما أن هناك إحساناً في القتل، وإحساناً في الذبح، فثمة إحسان في الصيد، ووضع لها شروط منها كما سبق أن قلنا: لا يقتل عبثاً، وأيضاً أن يَخْرِقَ السلاح جسم الصيد وينفذ فيه، ونهى النبي عن الصيد بالحصاة؛ لأنها كما قال: لا تصيد صيداً ولكن تكسر وتفقا.

وما نراه الآن في حلبات مصارعة الثيران لا يقرُّه الدين الإسلامي؛ إذ لا رحمة في هذا الفعل ولا حس ولا شعور للقاتم به؛ لما يكابده هذا الحيوان. وهذا هو القتل صَبْرًا الذي نهى عنه النبي ﷺ. وكذلك نهى عن التحريش بين البهائم، وحرَمَ إيذاء الحيوان وتحميله فوق طاقته، فإنَّ حمْلَهُ إنسانٌ ما يعجز عنه كان للحاكم أن يمنعه من حمل ما لا يطيق، وإذا كان الحيوان حلوباً وله ولد فلا يجوز الأخذ من اللبن إلا بالقدر الذي لا يضر ولده.

ويقول لهم النبي ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

ويقول: «لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقى».

ويقول: «إن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تُعِدني. فيقول ابن آدم: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول ربُّ العزة: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تُعده؟ أما علمتَ أنك لو عدته لوجدتني عنده؟!

يا ابن آدم: استطعمتك فلم تطعمني!

فيقول ابن آدم: يا رب كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول ربُّ العزة: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟!

أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي؟!

يا ابن آدم: استسقيتُك فلم تسقني!

فيقول ابن آدم: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

فيقول رب العزة: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه

أما علمتَ أنك لو أسقيته لوجدتَ ذلك عندي؟!

وقدم عليه ﷺ أناسٌ من الأعراب فقالوا: أُنقبِلون صييانكم؟ فقال لهم: نعم. قالوا: لكنَّا لا نُقبِّل. فقال النبي: أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة.

وكان يقول لأصحابه: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوّل ما شاء».

ويقول: «إنى لأدخلُ في الصلاة فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّزُ ممّا أعلمه من شدة وجد أمه من بكائه».

وتتجلى روعة الرحمة في الإسلام في قصة غزوة مؤتة؛ فقد بعث النبي الصحابي الحارث بن عمير بكتاب إلى عظيم بُصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً من قبل قيصر على البلقاء من أرض الشام - فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، وكان هذا الفعل بمثابة إعلان حرب في وقتنا هذا، فاشتد على النبي ﷺ حين نقلت إليه الأخبارُ بمقتل رسوله، فجهّز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمرَ عليه زيد بن حارثة وأوصاهم بوصية ما أحوج العالم المتحضر إليها الآن:

«لا تغدروا، ولا تُغيروا، ولا تَقْتُلُوا وليداً ولا امرأةً ولا كبيراً فانياً ولا منغزلاً بصومعةٍ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناءً».

هذا ديننا لا يحتاج إلى توضيح أو تنميق في الكلام، فهو صريح وتشع الرحمة متوهجة في كل كلمةٍ يتلفظها نبينا محمد بن عبد الله.

وتتمثل الرحمة أيضاً بعد فتح مكة في أهل قريش الذين طالما ناصبوه العداوة والذين سخروا منه وآذوه وعذبوه ورموه بالكذب والجنون والسحر، وقتلوا أصحابه وأذاقوهم صنوف العذاب، والذين قاطعوه ومنعوا عنه أصحابه وعشيرته الطعام ثلاثة أعوام كاملة حتى إنهم لجئوا إلى أكل الأوراق والجلود.

أهل قريش الذين اضطروه إلى مغادرة بلده فاراً بدينه، وطاردوه ووضعوا مكافأة مائة ناقة لمن يجيء به حياً أو ميتاً. أهل قريش الذين استحلوا أموال المسلمين وديارهم بعد فرارهم إلى المدينة المنورة. أهل قريش الذين جيّشوا الجيوش وعبّئوا القبائل ضده. أهل قريش الذين بقروا بطون شهداء المسلمين في غزوة أحد ومثلّوا بجثثهم، ونسألتهم اللاتئى جدّعن أنوفهم، وقرضن إذانهم، واتخذن منها خلاخيل وقلائد نكايّة في المسلمين.

وبعد كل هذه المعاناة من أهل قريش؛ قال لهم عندما مكّنه الله منهم: ماذا ترون أنى فاعل بكم؟ ثم تجلّت رحمته حيث قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ومن أقواله:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرج الله عنه

بها كربةٌ من كُرب يوم القيامةِ ومن ستر مسلماً ستره الله يوم
القيامةِ».

وكان يقول حائثاً أمته على الإحسان إلى الأيتام:

«أنا وكافل اليتيم فى الجنةِ كهاتين؛ وأشار بأصبعيه: السَّبَّابةِ
والوسطى، ثم فرَّجَ بينهما».

ويقول: «مَنْ مسح على رأسِ يَتِيمٍ له لا يمسحه إلا الله كانت له
فى كل شعرةٍ مرت عليها يَدُهُ حسناتٌ».

ويقول: «خيرُ بيتٍ فى المسلمين بيتٌ فيه يَتِيمٌ يُحَسِّنُ إليه،
وشرُّ بيتٍ فى المسلمين بيتٍ فيه يَتِيمٌ يَسَاءُ إليه».

ويقول: «من دعا يَتِيماً من بين المسلمين إلى طعامِهِ وشرابه
أدخله الله الجنةَ البتة، إلا أن يعمل ذنباً لا يُغفر له».

ويقول: «والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم
اليتيمَ ولأنَّ له فى الكلام، ورحم يَتِمْه وضعفه، ولم يتطاول على
جاره بفضل ما آتاه الله».

وكان النبى ﷺ يحث صحابته على التصدُّق والإنفاق من
أموالهم بالقليل أو الكثير؛ ترويضاً للنفس على السخاء. فيقول:
«مَنْ تصدَّق بعِذْلِ تمرَةٍ من كسبٍ طيبٍ - ولا يقبل الله إلا طيباً -

فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره،
حتى أن اللقمة لتصير مثل جبل أحد.

ويقول: «ما نقصت صدقةً من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا
عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل» (*).

ويقول مبيِّنًا فضل إخفاء الصدقة: «سبعة يُظَلِّهم الله في ظله
يوم لا ظل إلا ظله... - رجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا
تعلم شماله ما تنفق بيمينه».

وسُئِلَ ﷺ: أَى الصدقة أفضل؟، قال: سرًّا إلى فقير، أو
جهد من مقل.

ويقول فيمن يقضون حوائج الناس: «إنَّ الله خلقًا خلقَهم
لقضاء حوائج الناس ألى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا
كان يوم القيامة وُضِعَتْ لهم منابرٌ من نور».

ويقول: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ
خَطْوَةٍ سَبْعِينَ حَسَنَةً وَكَفَّرَ عَنْهُ سَبْعِينَ سَيِّئَةً، فَإِنْ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ
عَلَى يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَإِنْ مَاتَ فِي خِلَالِ
ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وخيرُ ما نختم به حديثنا عن الرحمة ما بدأنا به وهى الآية
الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(*) مكاشفة القلوب: ص ٢٢٥.

سَلَامٌ

السلام هو الأمان والاطمئنان، وسكون النفس وراحتها، وهو نشر الحب والعدل على الناس فى كل مكان؛ على اليهودى، والمسيحى، والبوذى، والسيخى، وعلى الأسود والأبيض تكریمًا لإنسانيته.

والسلام هو الباعث لحب الحياة والانطلاق فى أرض الله الواسعة لتكتسبَ بالعمران.

والسلام اسم من أسماء الله الدالة على عنايته وإحاطته الرءومة بعباده، فاشتق لنا اسم الإسلام من السلام.

ولا نقصد السلام الحالى «سلام الشجعان» أو «سلام الحملان» أو «سلام الخذلان»، ولكن «سلام الإسلام» المنبثق من تعاليمه.

فها نحن عندما نتلاقى نبادر قائلين: السلام عليكم، وعندما نفرق نقول: السلام عليكم، بل ونزيد عليها فنردفها بالدعاء أى بالرحمة والبركة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فنحن نبدأ بالسلام، تحيتنا السلام؛ لأنه أمان، ولا كلام قبل الأمان؛ لذلك يقول نبينا ﷺ: «السلام قبل الكلام».

ويقول أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ السَّلَامَ تَحِيَّةً لَأَمْتَنَا وَأَمَانًا لِأَهْلِ ذِمَّتِنَا».

ولأنه أمانٌ يقول: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ بَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ».

ولعظمة هذه الكلمة - السلام - فى الإسلام وما تحتويه من معانٍ جَمَّةٍ، فهى تحية الله للمؤمنين يوم يلقونه يوم القيامة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وهى تحية الملائكة للمؤمنين فى الآخرة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهى اسم الجنة التى وَعِدَ المتقون: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وهى الأكثر شيوعاً على السنة أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

ونجدها فى مواضع كثيرة فى القرآن: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ «ادخلوها بسلام آمنين»، «سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون».

ومن أجل الحفاظ على السلام الذى ينطوى على معنى الرحمة والتسامح والعدل وصيانة حرية الإنسان وكرامته شرع الجهاد أو التعبئة العامة لتكون هناك قوة لحماية أهدافه الرامية إلى إرساء

قواعد السلام فى العالم، وبالتالى حماية المجتمعات الإسلامية؛
 فيقول ربنا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
 تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
 يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال لنا «ترهبون» ولم يقل «تعتدون»، وفى كيفية أعمال هذه
 القوة وعدم الشطط بها بينَ قائلاً فى آيات عدة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
 [البقرة: ١٩٠]. ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾
 [النحل: ١٢٦]. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
 عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

ويتضح مما سردناه فى الآيات السابقة أن الجهاد دفاع لا اعتداء،
 وليس كما شاعت ترجمته فى اللغات الأجنبية حرب مقدسة لا
 وجهة لها سوى التعصب الذميم وإشباع نزوات عدوانية.

ولست الرحمة والتسامح والعدل وجميع الحقوق التى ينادى
 بها الإسلام للأفراد كلمات مجوفة أو شعارات مستهلكة، ولكن
 هى دعوة حقيقية تهدف إلى التعايش السلمى بين المجتمعات
 بعضها ببعض، لذا نلتمسها فى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الذين لم يُقاتلوا في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم
وتُقسطوا إليهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿ [الممتحنة: ٨] . ﴿ من قتل
نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها
فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴿ [المائدة: ٣٢] . ﴿ وتعاونوا على البرِّ
والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴿ [المائدة: ٢] .

ويقول موضعاً جزاء من يتخذ العنف والعدوان والقتل
والتخريب طريقاً ومنهجاً: ﴿ أَنْ يُقْتُلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [المائدة: ٣٣] .

ويقول في وصف النبي ﷺ: ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿
[الأنبياء: ١٠٧] .

ويقول عن نفسه ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» .
وهذا ما دعا إليه الإسلام: المسالمة والمعاشرة الجميلة،
والمعاملة بالحسنى، وتبادل المنافع مع الديانات الأخرى، وقد
كفل لهم حريتهم الدينية وعدم إكراه أحد منهم على ترك دينه
فيقول الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴿
[البقرة: ٢٥٦] .

ويقول في موضع آخر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول ﷺ: «اتركوهم وما يدينون».

ونهانا الله تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى واللين والرفق بهم ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ويقول أمراً عباده بالقسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ولكل ما تقدم يبدو الإسلام حريصاً على استقرار الإنسانية وسلامتها عن طريق وضع الأحكام والتشريع، ولا يعتبر نفسه بمنأى عن العبث والقلاقل وإهدار الكرامات لبنى البشر في باقى المعمورة وتوضيحاً لذلك ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً بليغاً حين قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا

هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»

إذن الإنسانية بأكملها مسئولة عن أمنها واستقرارها ومن ثم جاءت الشريعة الإسلامية لحماية حقوق الإنسان؛ فأكدت على حرمة النفس، ولحمايتها شرعَ القصاص، وحمايةً لحق ممتلكات الآخرين شرعَ حدُّ السرقة، وحمايةً لحق الأعراض شرعَ حد الجلد والتغريب والرجم.

وهكذا يُرسى الإسلامُ قواعدَ السلام. وتدعيمًا لذلك يقول النبي لأحد أصحابه: «ألا أدلكَ على صدقةٍ هي خير لك من حُمُر النعم؟ قال نعم يا رسول الله. قال: تُصلح بين الناس إذا فسدوا، وتقرَّب بينهم إذا تباعدوا».

إسلامي حُسن الخلق

قسوة الحياة والعيش في الصحارى القاحلة . . وافتقار العقيدة الصحيحة هي بعض الأسباب التي خلّفت في القبائل العربية جفاء الطبع وحدته وجفاف العاطفة . فكانوا يُغيرون وينهبون دون شعور بالذنب، ووَحَزِ الضمير، بل الأعجب أنهم كانوا يتقربون ببعض ما سرقوا لآلهتهم، وما ربحوه من الميسر يتصدقون به على الفقراء .

لذا تجدهم يُمجّدون شعراءهم، فعندما يعثرون على شاعر لديهم يتصايحون ويتهافتون عليه ويذيعون أشعاره في رحلاتهم ويتغنّون بشعره لما له من فضل في قدح شرارة أحاسيسهم الخاملة التي أفقدتهم حياة التنقل والفيافي الشعور بها .

فكان على عاتق النبي ﷺ مسئوليةٌ عسيرة هي الأخذ بأيديهم نحو حياة مغايرة تماماً، ليست كما عهدوها وآباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، بل هي حياة أفضل، وكان مكلفاً بهدم كل ما شادته السنون في الأخلاق والعقائد وإحلال غيرها . فاحتمل النبي في نشر دعوته فظاظة الأعراب وجهامة قومه، فهذا يجذبه من

ثوبه، وآخر يتناول عليه بكلام جارح، وآخرون يمزقون ثيابه، ويحثون على رأسه التراب، فكان على بينة بأخلاقهم وسوئها، وعلى بينة بأد إعادة تشكيلها ليس بالأمر السهل، بل يتطلب منه سعة الصدر، وقوة الاحتمال، والصبر والمثابرة، وكانت الآيات الربانية تأتيه تسانده وتشد من أزره، وتحثه على ملازمة حسن الخلق ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتَى هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٢٥]. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ١٥٩].

وإذا ألقينا نظرةً إلى أحاديث النبي في الرفق والعفو والإحسان والإيثار والتواضع وتجنب الظلم والحض على العدل والمساواة والأخلاق وغير ذلك من الشئون التي تهم الفرد والمجتمع، نجد أنه متطلعاً إلى الأخذ بيد الإنسانية لتبلغ ذرا الكمال والمثالية، ولو أن أفلاطون عاصره وسمع ما يقول، ما خطَّ حرفاً في جمهوريته؛ لأنه لن يتأتى له ما أوتي ﷺ من حكمة بالغة سبر بها غور معاناة النفوس والمجتمعات

وقد ركَّز النبي على تهذيب الأخلاق، وجعل ذلك قاعدةً أساسيةً ترتكز عليها دعائمه الإسلام، فحير سئل أى المؤمنين أفضل إيماناً، قال: أحسنهم أخلاقاً

وقيل له: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها؟ قال: لا خير فيها، هى من أهل النار.

وجاء رجل يسأله ما الدين؟ قال حسن الخلق، فأثاه الرجل من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: حسن الخلق. ثم أثاه من قبل شماله وسأله، ومن ورائه يسأله: ما الدين؟ فقال النبي له: أن لا تغضب

وجاء آخر يطلب النصيحة - كما كانت عادة صحابته دائماً يتحسسونها منه، فكان مما أوصاه به: خالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن.

وسأله آخر عن حسن الخلق، فقال له: هو أن تَصِلَ مَنْ قطعَكَ، وتَعْطِيَ مَنْ حرَمَكَ وتَعْفُوَ عَمَّنْ ظلمَكَ.

وكان ﷺ يُرَغِّبُ صحابته فى حسن الخلق فيقول: أثقلُ ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسنُ الخُلُقِ.

ويقول: إنكم لن تَسْعَوْا الناسَ بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق.

ويقول: سوءُ الخُلُقِ يُفسدُ العملَ كما يُفسدُ الخَلُّ العسلَ.

ويقول: إنَّ أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً.

ويقول: إن حُسْنَ الخُلُقِ لِيُذِيبَ الخطيئةَ كما تذيب الشمسُ
الجليدَ.

وكان يُكثر الدعاء لنفسه بقوله: «اللهمَّ كما حَسَّنْتَ خلْقِي
فَحَسِّنْ خُلُقِي».

«اللهم إني أسألك الصحةَ والعافيةَ وحُسْنَ الخُلُقِ».

«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت،
واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إلا أنت».

وسأله ذات مرة: ما خيرُ ما أُعْطِيَ العبدُ؟

قال: حُسْنَ الخُلُقِ.

ولهذا فقد نهج الصحابة والتابعون والسلف نهجَه؛ فهذا ابن
المُبَارَك صَحَبَ رجلاً سَيِّئَ الخُلُقِ، وظلَّ يتحمل أذاه وسوء خُلُقِهِ
بِرَحَابَةِ صَدْرٍ، ولما افترقا بكى ابن المُبَارَك، فَسُئِلَ عن ذلك، قال
لهم: بكيته رَحْمَةً لَهُ، فارقته وخَلَقَهُ معه لم يفارقه.

وقال التابعون عن حُسْنَ الخُلُقِ:

- هو بسطُ الوجه، وبذلُ النَدَى، وكَفُّ الأذى.

- أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم،
والاستغفار له، والشفقة عليه.

- هو أن لا يُؤَثِّرَ فيكَ جَفَاءُ الخُلُقِ بعد مطالعتك الحقِّ

والرفقُ من حُسْنِ الخُلُقِ، فتحكى السيدة عائشة زوجُ النبی أنها كانت معه فی سفرٍ علی بعیر صعب، فجعلت تصرفه یمیناً وشمالاً، فقال لها الرسول: «یا عائشة علیك بالرفق فإنه لا یدخل فی شیء إلا زانه، ولا ینزع من شیء إلا شانه».

ویقول: «أیما والٍ ولیّ فرّق ولان: رفقَ الله تعالى به یوم القيامة».

ویقول: «تدرون من یحرم علی النار یوم القيامة؟ كلُّ هینٍ لَینٍ سهلٍ قریب».

ویقول: «إذا أحبَّ الله أهلَ بیتٍ أدخلَ علیهم الرِّفق».

ویقول: «إنَّ اللهَ رفیقٌ یحبُّ الرفقَ ویعطى علیه ما لا یعطى علی العنف».

ویقول: «من یحرم الرفقَ یحرمُ الخیرَ کلَّه».

وكان النبی ﷺ یعلمُ صحابته والتابعین أنَّ الحکمَ لا یُننى علی المظهر، ولكن علی الجوهر، فلا یعتدُّ الشخص بماله وجاهه أو حسبه ونسبه، ولكن یعتدُّ بما حاك فی صدره من خیر وبما یقدمه لأخیه الإنسان من طیب. فذات یوم بینما كان یجلس بینهم إذ مرَّ أمامهم رجل بادی الفقر والمسکنة.

فسألهم: ما تقولون فی هذا؟

فقالوا: هو والله خَلِيقُ إِنْ خَاطَبَ الْآيُوزُجَ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ الْآيُصْفَى إِلَيْهِ . فَيَسْكُتُ النَّبِيُّ حَتَّى يَمُرَ رَجُلٌ آخَرُ تَبْدُو عَلَيْهِ النِّعْمَةُ وَآثَرُ التَّرَفِّ .

فسألهم: ما تقولون في هذا؟

قالوا: هو والله حَرِيٌّ إِنْ خَاطَبَ الْآيُوزُجَ ، وَإِنْ تَحَدَّثَ أَنْ يُسْتَمَعَ لَهُ ، فَيَقُولُ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ الْأَوَّلُ خَيْرٌ مِنْ مَلَأِ الْأَرْضَ مِنْ مِثْلِ هَذَا .

وفى أحد الأيام جاء مِثْلٌ لِكُفَّارِ قَرِيشٍ بِرِسَالَةٍ مِنْهُمْ يَرِيدُونَ تَبْلِيغَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَمَاذَا قَالَ؟ فَلَنَسْمَعْ عَجِيبَ قَوْلِهِ وَنُصْغَى إِلَيْهِ: «يَا مُحَمَّدُ إِنْ أَشْرَافَ قَوْمِكَ يَرُونَ أَنْ يَسْتَمْعُوا لَكَ ، وَلَكِنْهُمْ لَنْ يَجْلِسُوا مَعَ صَعَالِكَ مَكَّةَ وَفَقَرَائِهَا ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ يَوْمًا وَلَا تَبَاعَكَ يَوْمًا» . انْتَهَتْ رِسَالَتُهُمْ .

ولكن الإسلام ينبذ التمييز بين الناس ، فالجميع خلقُ الله ، وكلهم من آدم وحواء ، وجميعهم إلى تراب ، فلمَ المفاضلة؟

ولذا جاءت الآية حاسمةً هذا الأمر ، منصفةً للطبقة الكادحة: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] .

ورفض النبي ﷺ الطلب المقدم من كفار قريش بعد التوجيه الإلهي، بينما ازداد قرباً والتصاقاً بالفقراء والمساكين، حتى إذا لقيهم بادرهم قائلاً: «أهلاً بمن أوصانى بهم ربى»
 وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾
 [الحجرات: ١٣].

لم يقل أبيضكم أو أغناكم أو أجلكم نسباً وحسباً، ولكن قال أتقاكم.

وفى الوقت الذى كان يروح صنف من البشر تحت نير العبودية ويرسف فى أغلالها، فى وقت ساد فيه الفكر الإغريقى القائم على العنصرية والتفريق بين بنى الإنسان؛ امتثالاً لمقولة أرسطو: «إن العبد تسيطر بنيته على روحه، بينما السيد تسيطر الروح فيه على بنيته» فى زمن فُرّق فيه بين البشر لأسباب لا دخل لهم فيها، ربما اختطفوا من أوطانهم، وربما أسروا فى حروب انقادوا إليها جبراً وربما كان ثمنهم أنقذ جياعاً من الهلاك.

فى ذاك الزمان المظلم الموحش أطلّ النبي ﷺ بنوره، وجاء لإنصاف هؤلاء المطحونين المهمّشين المنبوذين جانباً كأنهم داء مُعَد؛ فيقول: «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى».

ويقول: «هم إخوانكم، فأطعموهم مما تطعمون، وألبسوهم مما تلبسون».

ويقول: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل فارفعوا العبيد إلى جواركم»

ويقول: «كلُّكم سواسية كأسنان المشط».

ويقول «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»

ويقول: «لا تعذبوا خلقَ الله؛ فإن الله ملككم إياهم. ولو شاء لَمَلَكهم إياكم»

ويقول: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليُجلِّسه وليأكل معه، فإن لم يفعل فليناولهُ لقمة».

ويرى الصحابي الجليل أبو هريرة رجلاً على دابته، وعلامه خلفه يترجل، فقال له: يا عبدالله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك.

وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي خضعت الأمصار لإمرته، فبعد انتصاره على الروم يذهب إليهم ليفتح بيت المقدس ويعطي الأمان لأهلها، يذهب ومعه خادمه، وبغير واحد أبى أن يمتطيه وخادمه يسير على قدميه، فتناوبا الركوب عليه عدلاً، فيخوض عمر الوحل ويسحب بعيره وخادمه فوقه، ودخل على أشراف

الروم على حالته هذه سائراً على قدميه ومقود بعيره بيده، وخادمه راكب.

وعمد النبيُّ إلى تهذيب أخلاق قومه من الكبر، وجنهم على التواضع فيقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من كبرٍ أكَبَّهُ الله في النار على وجهه».

وسأله رجل: إني امرؤ حُبِّبٌ إلى من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟ فقال له: لا ولكن الكبر بطرُ الحق وغمطُ الناس» أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه.

ويقول لأصحابه: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله».

ويقول: «التواضع لا يزيد العبدَ إلا رفعةً؛ فتواضعوا يرحمكم الله».

ويقول: «إنه ليعجبني أن يحملَ الرجلُ الشيءَ في يده يكون مهنةً لأهله؛ يدفع به الكبر عن نفسه».

فكان نبينا يكنسُ البيت ويحلبُ الشاة، ويصلح النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيأ، ويشترى الحاجة من السوق، ويعلقها في يده، لا يدريها فلا يرى حرجاً في ذلك

وكان يقى نفسه دائماً من العُجْب والغرور والكبر، فيحمل الحجارة مع أصحابه على كاهله لبناء المسجد، ويحفر معهم خندق المدينة، ويشد على بطنه حجراً لشدة الجوع كأحدهم، وإذا ساروا فى طريق مشى فى غمارهم.

ويخرج مع أصحابه ذات يوم فيقول أحدهم: أنا على ذبح الشاة، ويقول آخر: وأنا على سلخها، ويقول عليه السلام: وأنا على جمع الحطب.

وتخلّق أتباعه بخلقه وساروا على دربه؛ فروى أن عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين أتاه ضيفٌ وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال الضيف: أفأنبه الغلام؟ قال عمر: هى أولُ نومةٍ نامها. فقام عمر وملاً المصباح زيتاً. فقال الضيف: قيمتَ أنتَ بنفسك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: ذهبتُ وأنا عمر، ورجعتُ وأنا عمر، ما نقصَ منى شىء! وخيرُ الناس من كان عند الله متواضعاً.

وما وجدَ النبي عليه السلام فضيلةً إلا وبادر بغرسها فى أصحابه؛ فمنها يزرع فيهم حب الإيثار ويبدأ بنفسه. فلقد جاءته يوماً ابنته فاطمة بينما كان يقوم بتقسيم فِئ، فأرجأها وقال لها: «حتى يكتفى الناس أولاً».

وتقول السيدة عائشة: «ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا».

هكذا كان شعاره: إن محمداً وأهله هم أوّل من يجوع إذا جاع الناس، وآخر من يشبع إذا شبع الناس.

ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ويحكى سيدنا عمر وإذا ترسّخت في المسلمين حب الإيثار: «أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله رأسُ شاةٍ فقال: إن أخى كان أحوج مني إليه فبعث به إليه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول».

وفي العفو والإحسان تقول الآيات: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وندّد النبي بالفحش والسب وبذاءة اللسان في أحاديثه فيقول «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء».

ويقول: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم أخلاقاً».

ويقول عن الأمانة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وجاء رجلٌ يقول: يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، يكفّر الله عن خطاياي؟ قال: نعم. فلما أدير الرجل ناداه، وقال: يغفر الله للشهيد كلَّ ذنبٍ إلا الدينَّ.

ويأمرنا الله تعالى في القرآن أن نؤدي الأمانات إلى أهلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ويقول النبي ﷺ أيضاً: «لا دينَ لمن لا أمانةَ له».

وأمرنا الإسلام بقول كلمة الحق وطرحها في وجه الظالم مهما كانت العاقبة، ونصرة المظلوم، فيقول النبي: «أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر».

ويقول: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

فتعجب الصحابة؛ فنصرة المظلوم واجبة ومما تنادى به الفطرة، أما أن يكون ظالماً ونصره فكيف؟! حينها أبان لهم النبي كيف يُنصر الظالم بأن يأخذ على يده ويمنع عن ظلم العباد.

وفي العدل يقول: «من ضرب سوطاً ظلماً، اقتُصَّ منه يوم القيامة».

وذات يوم دعا إلى القصاص من نفسه حينما خدش أعرابياً دون قصد.

ويقول لأسامة وأصحابه عندما جاء يتشفع في امرأة سرقَت وكانت من أشرف قومها: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وأئيم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقَت لقطعت يدها».

ويعلم النبيُّ أن أحد ولاته قَبِلَ هديةً، فغضب غضباً شديداً، وبعث إليه يستدعيه، فلما مثَّلَ أمامه سأله: كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟ فقال الوالي: لقد كانت هدية يا رسول الله. فيقول له النبي: أرأيت لو قعد أحدكم في داره ولم نُؤَلِّه عملاً أكان الناس يُهدونه شيئاً. فأمره برد الهدية ثم قام بعزله.

ويقول: «لأن يأخذ أحدكم حَبْلَهُ فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي فيحمله على ظهره فيأكل خَيْرٌ له من أن يجعل في فيه ما حَرَّمَ الله عليه».

ويقول: «من كسب مالا حراماً فاعتق منه ووصل منه رحمه، كان ذلك إصرأ عليه»

ويقول «لا يدخل الجنة لحمٌ ودمٌ نبتا من سُحَّتِ إلا والنارُ أولى به»

ويقول لصاحبه سعد: «يا سعد، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ»

ويقول: «من اشترى سرقةً وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها».

ويوصينا بالجار - أيًا كانت ديانتَه أو لغته أو لونه - ويبيِّن ما له من حقوق فيقول: «الجيران ثلاثة: جارٌ له حق واحد وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك».

ويقول: «أَحْسِنْ مجاورةَ من جاوركَ تَكُنْ مُسْلِمًا».

ويقول: «لا يؤمن عبدٌ حتى يأمنَ جاره بوائقه».

ويقول: «إذا أنت رميت كلبَ جارك فقد آذيتَه».

ويوصي ﷺ صاحبه أبا هريرة: «إذا طَبَخْتَ قدرًا فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيتٍ في جيرانك فاغرف لهم منها».

ولم يترك النبي ﷺ شيئًا فيه إسعادٌ للخلق وصَلاحٌ بين الناس إلا قال فيه، وما وجد شيئًا فيه شرٌّ للناس إلا ونهى عنه.

فقد أمر بصلة الرحم ونهى عن الغيبة والنميمة، وعن الزنا

والكبر والغرور والبخل، وعن شرب الخمر، وعن الاستهزاء
والسخرية من الناس، وعن الكذب وعن الغضب.

وخلاصة القول ما جاء فى وصيته لمعاذ إذ قال: «يا معاذ،
أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء
الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورَحْمَةِ اليتيم، ولين
الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل وقِصَرِ الأمل، ولزوم
الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحُبُّ الآخرة، والجزع من الحساب،
وخفض الجناح، وأنهاك أن تَسُبَّ حَكِيمًا، أو تكذب صادقًا أو
تطيع آثمًا، أو تعصى إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا، وأوصيك
باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تُحدث لكل ذنب
توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

ولكل ما تقدم يقول سيدنا أنس: «لم يدع ﷺ نصيحة جميلة
إلا وقد دعانا إليها، وأمرنا بها ولم يدع غشًا إلا حذرناه ونهانا
عنه».

ورغم كل أحوال الأمة وهمومها، ومتاعب نشر الدعوة التى
كانت فوق كاهل النبى ﷺ ما عبس وجهه أو بسر، ولكن كان
يحب المزاح الحق الذى لا يؤذى الآخرين ومشاعرهم ولا تدليس
فيه.

ومثال للمزاح الساخر المنهى عنه أنه أقبل أعرابى إلى النبى على

قلوص - ناقة - صعب، فسلم، فجعل كلما دنا من النبي ليسأله، يفر به، وجعل أصحاب النبي يضحكون منه، ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل: يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك. فقال: نعم، وأفواهمكم ملأى من دمه.

* وجاءت إلى النبي امرأة فقالت له: إن زوجي يدعوك.

فقال لها: ومن هو؟ أهو الذى بعينه بياض؟

فقالت المرأة: والله ما بعينه بياض.

قال لها: بلى إن بعينه بياضاً.

قالت: لا والله.

فقال: ما من أحد إلا وبعينه بياض.

* وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله، احملنى على

بعير.

قال لها: بل نحملك على ابن البعير.

قالت: ما أصنع به؟! إنه لا يحملنى.

قال: ما من بعير إلا وهو ابن بعير.

وصنعت السيدة عائشة يوماً طعاماً للنبي ﷺ؛ وكانت عندها

السيدة سودة، فقالت لها: كلى، فأبت سودة، وقالت عائشة:

والله لتأكليْن أو لالطخن به وجهك، وعندما رأت إصرارها على

عدم تناوله، أخذت منه شيئاً ولطخت به وجهها، والنبي جالس
بينهن، فخفض النبي ركبتيه لسودة لستمك من عائشة وتلطخ
وجهها، وعندما فعلت ضحك النبي ﷺ

* وجاءت إليه امرأة عجوز وسألته أن يدعو لها أن تدخل الجنة
فقال لها ﷺ لا يدخل الجنة عجوز.

فبكت المرأة، فقال لها: «إنك لست بعجوز يومئذ».

* وكان هناك رجل يحب مجالسة النساء، فرآه النبي يوماً
يتوسطهن فقال له يا أبا عبدالله، ما لك مع النساء؟

فقال الرجل. يفتلن صغيراً لجملي لى شرود.

وقضى النبي حاجته وعاد فلما رآه قال له: يا أبا عبدالله أما
ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟!

وكان كلما لقيه قال له ذلك حتى أن الرجل أضحى يتفرر منه
إذا لمحه. ولحقه النبي يوماً وهو على حمار فسأله كعادته. يا أبا
عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟

فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما شرود منذ أسلمت

إسلامي والمرأة

قبل أن نشرع ونستشرف ما آل إليه حال المرأة تحت مظلة الإسلام، يتحتم علينا أن نتجول في العالم القديم ونستعرض وضع المرأة في الأمم الغابرة أثناء ظهور الإسلام وقبله، فنبدأ بالإغريق فكانوا يعدونها كالبهائم لا تصلح إلا لإنجاب الأولاد الأقوياء الصالحين للجنديّة والقتال، وإلا قُتلت أو تؤخذ من زوجها عنوةً وتعار لغيره لتلد منه أولاداً أقوياء يُزج بهم في أتون الحروب.

وقال مشرّع الهند «منو»: «تخضع المرأة في طفولتها لأبيها، وفي شبابها لزوجها، وفي تأيّمها لإبنائها إذا كان لها أبناء، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بعلمها ؛ أى لا يجوز ترك أمرها لنفسها».

كما ورد في شرائع اليونان والرومان، أن سلطان الرجل في روما على زوجته كان مطلقاً، وكانت تُعد أمةً لا قيمة لها في المجتمع، ولم يكن لها قاض سوى زوجها، الذي بيده حق حياتها وحق موتها.

وكذلك الشريعة اليونانية لم تعترف لها بأى حق، ولا بحق الميراث.

وكانت النساء فى الصين يحرقن أنفسهن إذا مات الزوج؛ إذ كان يعتقد أن هذا تكريم له .

وفى بلاد الهند كان الرجل يتزوج دون تقييد فى عددهن، شأنه شأن جميع الأمم آنذاك، ويضع كل واحد على حسب مكانة أسرتها الاجتماعية؛ فتفاوت معاملته لهن على هذا الأساس، ومن ثم يسقط مبدأ العدل بينهن، وكانوا يعتبرون الزوجة مصدر عارٍ وشرٍّ؛ لذا كان الحرق لهن بعد مماته .

وكان الفُرس يتصرفون فى المرأة كالسلعة، ولا يجدون أى حرج فى الحكم عليها بالموت، وفى مصر الفرعونية كانت تقدّم قرباناً لنهر النيل .

وكان الأفارقة يتزوجون من النساء على قدر ما أتيح لهم، وكانوا يدفعونهن للعمل خارج البيت للتغلب على مصاعب المعيشة والفقر، لدرجة أن المرأة كانت تفرح لزواج زوجها من أخريات لما تجده من تخفيف الأعباء والضغط عنها .

ولم تكن نساء العرب أحسن حالاً من الأخريات؛ إذ كانت البنات يدفنّ فى التراب وهن أحياء، و كانت المرأة إذا مات زوجها انتقل الحق فيها لوليه؛ إن شاء تزوّجها أو زوّجها أو لم يزوّجها، فهو أحق بها من أهلها . وكان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى

عليها حميمه ثوبه، ومعنى هذا أنها أصبحت له من دون الناس، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها أو تفتدى منه بفديه. وكانوا إذا مات الرجل ورث الوارث امرأته مع بقية ماله، وكان الرجل إذا طلق زوجته يشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراده، فيأتى بالشهود، ويكتب ذلك عليها، ويُشهد على هذا الشرط، ولا يُطلق سراحها حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاه.

وجاء الإسلام ليشهدَ الظلمَ الواقعَ على المرأة، فشرع في إنصافها، ففرض حقوقها على الجميع؛ فلها حق الحياة، ولها حق الإرث، ولها حق إبداء الرأى فى مصائرها، ولها حق الشورى، ولها حق التعلم والتفقه.

وعندما جاء الإسلام وجد المرأة منزوعة الشخصية، لا كرامة لها، ولا حرية، بل لا سلطان لها حتى على نفسها، فُقتل، وتُباع وتعار، ويُغنى بها، وتورث، وتُعزل، فكانت كالحَيوان بل كالجماد، فلم يرض لها الإسلام ما صارت إليه، فأيقظ همتها، وبدلَ استكانتها عزاً، ورفع مكانتها.

فنزلت الآية تنهى المسلمين عن وأد البنات، وتوعدهم بأنهم مسئولون عن جريمتهم الشنيعة فى حق المَوَدات، وأنهن يوم

القيامة سوف يطالبن بالقصاص من وأدهن ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨-٩].

ووصف لنا الله تعالى حال الكفار عندما يشَّرون بالأنثى، ليس للتسلية والتندر، ولكن لتتعظ ونبتعد عن هذه الصفات المقبوحة والتي تأنفها الفطرة الإنسانية فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩].

فيسودُّ وجهُ الكافر حزناً، بل يتوارى عن أعين الناس خوفاً من معايرته بمولد الأنثى، متحيراً في الاختيار: أتركها مهانة لا إرث لها ولا رعاية؟ أم يدفنها في التراب؟ ومع أن الإسلام يجبُّ ما قبله من ذنوب وكفر، إلا أنه لشناعة الوأد جعل له كفارة؛ فقد جاء الصحابي قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إني وأدت بنتاً في الجاهلية؟ فقال له النبي: أعتق عن كل واحدة منهن رقه. قال: يا رسول الله إني صاحب إبل.

قال له النبي: فانحر عن كل واحدة منهن بُدنة.

وكان ﷺ دائم الحث على إيقاظ القلوب وترقيتها للحنو على البنات فيقول: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضَّع أصابعه».

وتحكى السيدة عائشة للنبي ﷺ أن امرأة جاءت بها تحمل ابنتين لها تسألها طعاماً، فلم تجد السيدة عائشة إلا ثلاث تمرات، فدفعت بهن إليها، فأعطت المرأة كل واحدة من بتيها ثمرة، ورفعت بالباقية إلى فيها لتأكلها، فاستطعمتها ابتهاها، فشقت الثمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبت السيدة عائشة برحمتها وعطفها على بتيها، فنقلت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فعقب النبي على ذلك قائلاً: «إن الله قد أوجب لها الجنة [أو أعتقها بها من النار]».

وكان يقول زاجراً محذراً من تضييع حقوق المرأة: «اللهم إني أخرج حقَّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة».

ويقول: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

ويقول: «إنَّ لكم من نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً».

وقال في آخر خطبة له قبيل وفاته: «استوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وتقول الآية موصيةً بحُسنِ المعاشرة ولين الجانب لهن: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وإذا طُلقت المرأة وانفصلت عن الرجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ

بالمعروف حقاً على المتقين ﴿ [البقرة: ٢٤١]

وإضافةً إلى حق متاعها، فإن لها المفارقة بالحسنى؛ لا قبح، لا شتم، ولا تعنيف؛ لقوله تعالى: ﴿فَارْقَوْهُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

وأيضاً فى زواجها صداق: مهر يُدفع لها واجبٌ على من أراد الدخول بهن؛ فيقول تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

كما أن المرأة تُستأذن فى زواجها، ولا يصح العقد إلا بإيجابها.

وفى حالة الزواج بأكثر من واحدة، يجب على الرجل العدل بينهن؛ فلا يفضل أو يقربُ إليه واحدة عن الأخرى، فيقول النبى ﷺ مبيناً موقف إجحاف من يفعل ذلك «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحدُ شقيه ساقطٌ».

وإذا أتينا إلى قضية الإرث التى أثارت وما تزال تشير جذلاً واسعاً طمَّ المشرق والمغرب، واتُّهم الإسلام فيه جزافاً بعدم المساواة بين الرجل والمرأة، إذا أتيناها كان علينا النظر إليها من المنظور الإسلامى وليس الغربى؛ لأن هناك فرقاً شاسعاً بين الاثنين؛ فالغرب ينظر إلى المرأة على أنها واحدة، فردٌ فى المجتمع مستقل بذاته، أما عند الإسلام فهى عضو أساسى ثابت حيوى مكمل

للرجل، والرجلُ فى نفس الوقت مكملٌ لها، فلا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر، وعلى هذا بُنى الحكم؛ فالإسلام يفرض على الرجل الإنفاق على من يعول، ولا يجوز له أن يأخذ من مال المرأة الخاص شيئاً إلا برضاها وعن طيب نفس، وبذلك فهى غير مطالبة بالنفقة على الأسرة.

«والباحث المنصف فى أحكام وقواعد الميراث يتبين له أن أنصبة الميراث لا يتحكم فى توزيعها بين المستحقين عامل الذكورة أو الأنوثة، بل ثلاثة عوامل:

١- درجة القرابة بين الوارث ذكراً أو أنثى وبين المورث المتوفى، فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب فى الميراث.

٢- موقع الجيل الوارث من التابع الزمنى للأجيال؛ فالأجيال التى تستقبل الحياة عادة يكون نصيبها فى الميراث أكبر من الأجيال التى تستدبر الحياة، بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين، أى أن فرع الميت أولى من أصله؛ فالبنت ترث أكثر من الأم وكلتاهما أنثى، بل وترث أكثر من الأب، والابن يرث أكثر من الأب، وكلاهما من الذكور، بل البنت قد تحجب العم أحياناً وهكذا.

٣- العبء المالى الذى يوجهه الشرع على الرجل دون المرأة؛ فإن العدل يستوجب تفاوتاً بينهما فى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ

فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴿ لأن الذكر الوارث هنا -
فى حالة تساوى درجة القرابة والجيل - مكلف بإعالة زوجة
أنثى، بينما الأنثى - الوارثة - إعالتها فريضة على الذكر
المقترن بها.

لذلك تلزم الشريعة الرجل بالإنفاق على المرأة: الزوجة والإبنة
والأم والأخت عند الحاجة، ولا تلزم الزوجة بالإنفاق على نفسها
أو أسرتها، وإن كانت غنية، فجميع ما تملك من أموال لها
وحدها» (*) .

وحين تخرج المرأة للعمل وتنافس الرجال فى جميع الميادين
وقد تتفوق عليهم أحياناً، ليس معنى هذا نقض المعايير -القاعدة-
التي وضعها الله التي يريد بها العدل من أجل استثناء.

ودعوى مساواة المرأة بالرجل فيها قصورٌ مناف للطبيعة؛ فلا
الرجل يسوَّى بالمرأة، ولا المرأة تسوَّى بالرجل، كلٌّ منهما خلق
وجبل على هيئة معينة مناسبة لظروف معينة، فالمرأة فى أى مكان
وزمان، وعلى جميع المستويات الثقافية والاجتماعية هى المرأة
الحنون التي تعشق الأمومة وتحب البيت والأطفال والزوج،
وتكرس حياتها لهم، أما غير ذلك فهن استثناء، وبديهة لا يجوز
استبداله بالقاعدة

(*) ميراث الأنثى فى الإسلام د سعاد صالح - الأهرام.

وبعد هذا العرض الموجز فهل أجحف الإسلام بالمرأة؟.

وحسبى هنا نقل شهادة العلامة الفرنسي غوستاف لوبون مختتمًا بها كلامى فى هذا الموضوع إذ يقول: «الإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعى وشأنها رفعا عظيما بدلا من خفضها، خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية، كما أثبت ذلك حينما بحثت فى حقوق الإرث عند العرب، أجل أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبا التى قالت به، ولكنه اشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف».

إسلامی شُورے

﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩]

أمرُ إلهي صريح لكل راع للأخذ بمبدأ الشورى، وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في جميع الأمور، حتى أن السيدة عائشة قالت عنه: «ما رأيتُ رجلاً أكثرَ استشارةً للرجال من رسول الله».

وكان النبي يرى الرأي فيرجع عنه لرأى أصحابه، وإن كان كارهاً له، فقال يوماً لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما» وكان يشاورهم في غزوه، وفي سلمه وفي حياته الخاصة ويقول: «لا خاب من استشار».

وشاورهم في بدر، وفي أحد، وفي الخندق، وكان يقول لهم: «أشيروا علىّ معشر المسلمين».

ويقول لأصحابه: «إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه».

وقد عددَ الله مناقبَ المؤمنين ومن بينها مبدأ الشورى فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[الشورى: ٣٧ - ٣٨].

وسار السلفُ يحملون على عاتقهم إرساء قواعد الديمقراطية؛ فوضعوا أصولها قولاً وعملاً حتى التقفها الغربُ الذي أنكرها عليهم فيما بعد. فيقول الحسن رضى الله عنه: «الناس ثلاثة: رجلٌ رَجُل، ورجلٌ نصفُ رجل، ورجلٌ لا رجل . فالرجلُ الرجلُ: من له رأى ومشورة، والرجلُ نصف الرجل: من له رأى ولا مشورة له، والثالث: مَنْ لا رأى له ولا مشورة».

ولا شك أن التاريخ الإسلامي قد حفل بالعديد من الوقائع التي احترمت فيها الحاكم رأى الجماعة.

فها هو سيدنا أبو بكر يقول حين خلف النبي ﷺ وولى أمرَ المسلمين: «أيها الناس قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة».

ويتجسد الامتثال للشورى في سيدنا عمر عندما نهى عن المغالاة في المهور؛ فقد راجعته امرأة من عامة الناس وامتلل لرأيها، وقال مقولته الشهيرة: «كلُّ الناس أفقهُ من عمر» . تعالوا لنرى ونسمع هذا المشهد الرائع؛ فها هو ذا سيدنا عمر يرتقى المنبر ليخطب في الناس: «أيها الناس ما إكثاركم في صدق النساء، وقد كان رسول الله وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك؟! ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفنَّ ما زاد رجل في

صداق امرأة على أربعمائة درهم!

وينزل عمر، فتعرضه امرأة قائلة: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟
قال: نعم.

قالت: أما سمعت ما أنزل الله؟

قال: وأى ذلك؟

قالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا؟﴾
ويرتد سيدنا عمر عن عزمه ويراجع نفسه فيقول:
اللهم غفرًا! كلُّ الناس أفقه من عمر.

وفي الحال يصعد المنبر ويقول: أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن طابت نفسه فليفعل.

نعم أمر القرآن بالشورى، وكذلك رسولنا وأصحابه والتابعون، وهم القدوة للأمة، فعلى ضوء سننهم يسير المسلمون فى كل زمان. وما يستحدثه بعض أتباع الإسلام فى وقتنا الحاضر من سحق لآراء الناس ومصادرتها، وتكميم الأنفاس والأفواه لا يمت إلى الإسلام بصلة، لا من قريب ولا بعيد، لذلك نقول بدورنا: اللهم غفرًا! لقد أساءوا وشوهوا دينك، ولا تؤاخذنا بما فعل الجهلاء والسفهاء مِنَّا.

إسلامي يَحْتُ على الفكر والعلم

تَفَكَّرُ

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يرشد تعالى عباده إلى
التفكر في آلائه وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات
الباهرة لذوى الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات،
ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما
وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر
هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما
أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها
أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرا فيها من
دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال
وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب
والأمواج».

ويقول الله تعالى شاحداً فكر الإنسان ليدرك نعمه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]. ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠ - ٣٣]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ (١٨) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ

الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ نَشَأْكُمْ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧١﴾ أَلَمْ نَقْدَحْهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهكذا يزخر القرآن الكريم بالآيات والاستفسارات التي تحث الإنسان على إعمال عقله والتمسك به والرجوع إليه دومًا؛ حتى ترسو نفسه على شاطئ الحقيقة، ولهذا يأخذ الله سبحانه وتعالى بيدنا على مهل بتؤدة ليضع خطانا على طريق الهداية، فيلفت أنظارنا إلى خلقه في السموات والأراضين والجبال والبحار حتى تعمل عقولنا بالفكر ويزال عنها صدوها ثم يترك لنا الخيار بعد أن يضيء لنا طريق الهداية دون إكراه أو حصر على العقول.

فيقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول مخاطبًا نبيه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. ويقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن ثم يتحمل الإنسان تبعات اختياره. وما كل ذلك إلا لرفع شأن العقل الإنساني وتقديره.

وعمدَ النبي ﷺ في قومه إلى تحريرهم وتخليصهم من ربطة الجهل والتخلف الفكرى، فحينما رأى أجلاً أمورهم رهينة بين جناحي الحمام نهاهم وقال لهم: «لا طيرة في الإسلام».

وعند موت ولده إبراهيم حينما تصادف أن كسفت الشمس، فقال أصحابه: إن الشمس كسفت حزناً على إبراهيم! فقال لهم النبي ﷺ راداً عليهم قولهم: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله».

ولا ريب أن الإنسان كلما فقه أحوال الموجودات من حوله نفذت بصيرته وبلغت حكمته، وازداد إيمانه وخشوعه لله، وتلك ثمرة أعمال الفكر.

لذا يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويعنّف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين سكنت عقولهم وتقهقرت متخلفة عن المسيرة، وألقت بنفسها في جب الجهالة رغم ما وهبهم من حواس الإدراك من سمع وبصر وأفئدة تعينهم على التفكير والتدبر؛ فيقول تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويعيب الله على اليهود حينما أنزل عليهم التوراة ليعقلوها ويعملوا بما فيها، فما كان منهم إلا أن حفظوها عن ظهر قلب دون وعى وتفكير فى أحكامها.. فيقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].
فالله يحذّرنا أن نكون أمثالهم.

والنبي ﷺ ينذر هؤلاء الذين يجعلون الناس يفكّرون لهم ويقررون لهم فى حين يظنون خامدى الفكر، لا يحاولون تهيج جذوة العقل فيهم؛ لتصبح لهم استقلالية فكرية، ورأى ربما أكثر عقلانية ورجاحة.

فيقول: «لا يكون أحدكم إمعة».

ومعنى ذلك: إن أحسن الناس تبعوهم بالإحسان، وإن أساء الناس أساءوا مثلهم.

إذن، فالإسلام - متمثلاً فى القرآن الكريم والسنة المطهرة - لم يدخر جهداً للأخذ بيد الإنسانية نحو التنوير العقلى والبحث الحثيث الباعثين إلى رقى الأمم.

عِلْمٌ

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].
ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾
[المجادلة: ١١]. ويقول: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١].

إذن لا غَرَوَ أن دينًا كانت أول تعاليمه ﴿اقْرَأْ﴾ بأن يحض
تابعيه إلى اعتلاء صهوة العلم، وليس بالغريب أن تُرفع فيهم
مكانة العالم حتى تكاد تصل إلى مكانة الأنبياء.

فقد أمر الله نبيه قائلًا: «قل ربى زدنى علماً» فهو بعلمه سيزداد
خشيةً لله لما انتهى إليه من معرفة بقدرته وعظمته فى خلقه، كذلك
يدفع بنى الإنسان إلى الاستقراء إلى النظر فى خلقه دفعًا حثيثًا
فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلْ
انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

ويلهب العقولَ بالأسئلة لتشتغل بالبحث والتعلم ﴿قُلْ مَنْ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾
[يونس: ٣١]. وكان النبى ﷺ حريصا على توجيه الأمة

الإسلامية إلى تحصيل العلم وترغيبهم فيه؛ فيقول: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

ويقول: «فضلُ العالمِ على العابد كفضلي على أدناكم».

ويقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رَضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَيْتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ».

ويقول: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ».

ويقول: «لَمُوتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ».

ويقول: «هَلَاكُ أُمَّتٍ فِي شَيْئَيْنِ: تَرْكُ الْعِلْمِ؛ وَجَمْعُ الْمَالِ».

ويقول: «طَلِبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ».

ويقول: «كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا أَوْ مُحِبًّا، وَلَا تَكُنْ الْخَامِسَةَ؛ أَيَّ مَبْغُضًا فَتَهْلِكُ».

وبالتالى انطلق المسلمون فى كل صَوْبٍ بعزمٍ شديد ينتهلون العلوم؛ فبزغ منهم أفذاذ أناروا العالم، وبعثوا بعلمهم أمماً لبثت فى رقادها قرونًا متخلفة، كما أحيوا حضارات من تحت ركام مئات السنين، فكان الرجل منهم يركب ناقته ويقطع الفيافى شهوراً مخاطرًا بنفسه بين شقوق الجبال وعُرْضة للصوص ليتعلم مسألة واحدة.

إسلامي حضارة

بينما كانت أوروبا والعالم يتخبطون فى ظلام الجهل ، كان المسلمون العرب فى أوج ازدهارهم الثقافى ، فنهلوا علوم الفرس ، ولم تكفهم ، فانتقلوا إلى علوم الهند ، ولم يشبعوا نهمهم ، فعكفوا على ترجمة ودراسة ما خطّه فلاسفة اليونان ، فنقلوا إلى العربية كتب جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس ، فحازوا علوم الدنيا كلها . وبفضل هذه الترجمة اطلع الغرب الأوروبى على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها مثل كتاب ابلونيوس فى المخروطات ، وشروح جالينوس فى الأمراض ، ورسالة أرسطو فى الحجارة .

ولا شك أن ثمة عوامل أدّت إلى رفع المستوى الفكرى والثقافى لدى المسلمين آنذاك ، وشجعت العلماء على البحث والتنقيب فيما وصل إليه فكر الأمم المنصرمة ، ومنها على سبيل المثال استقراء الأمراء للعلماء ؛ فكان الأمراء يحرصون على أن يكون مجلسهم عامراً بصنوف العلماء ، لذلك كانوا يستقطبونهم من جميع البلاد ، مع مراعاة توفير كل ما يحتاجون إليه من زاد العلم والمعيشة ،

وكانت مفاخرة يتناولون بها على غيرهم حين يحتشد العلماء في قصر أحدهم دون الآخرين .

أما أوروبا فقد ظلت متحجرة متعثرة تحت نير الكنيسة التي باتت تتحكم في كل شيء؛ فسكن مفكروها؛ حتى أن العالم الفلكي جاليليو صودر كتابه «حوار حول أهم نسقين في العالم» ووقف أمام محاكم التفتيش مداناً لمجرد انحيازه لرأى كوبرنيكوس الذي قال إن الأرض تدور حول الشمس . كما أن كوبرنيكوس هذا حرمت الكنيسة وقتذاك كتاباً له عن طريق محاكم التفتيش -أيضاً- (حركة الأجرام السماوية) لأنه قال فيه إن الأرض تدور حول الشمس، وإن الأرض ليست أول المخلوقات، وإنها ليست مركز الكون، بل إن الشمس هي مركز الكون .

وقامت الكنيسة التي كانت سبباً في اندحار الدين ونبذه والاتجاه نحو العلمانيه بتعذيب العالم جردانو وهو في السبعين من عمره حتى توفي عام ١٦٤٢ بسبب قيامه بصنع تلسكوب . وهكذا أضحي الدين بالنسبة للشعوب الأوروبية رجعيةً وتخلفاً .

وتمكث أوروبا على هذا الحال قرونًا عدةً إلى أن تنطلق الفتوحات الإسلامية نحو العالم لتفتح أبواب العلم المنغلقة والتي صدأت مزاليجها، لتتنشل الشرق والغرب خاصةً من حضيض التخلّف .

فمن طريق إسبانيا المسلمة وصقلية وإيطاليا أخذت أوروبا علومها من العرب، وشهد كثير من مفكريها بأن الفضل الأول فيما آلت إليه الحضارة الأوربية من تقدم يعود للحضارة الإسلامية.

ولقد خلعت هذه الحضارة على أخلاق المسلمين العامة مثلاً وقيماً نادره لم تكن معروفة في ذاك الزمان؛ فمثلاً في فتوحاتهم لم يتعسف قواد الجيوش الإسلامية بشعوب البلاد، بل كانوا يُرسون قواعد العدل، ونشر العلم، ووضع الأسس والمثل التي تساهم في تقدمها ورفعها من حضيض الجهل والتخلف. ولنقرأ التاريخ وننظر كيف كان حال الأندلس قبل الفتح الإسلامي في ظل الهمجية الأوربية آنذاك؛ فقد كانت بلاداً خربة وشعباً مضطهداً ينهشه الفقر تحت سياط الإقطاع والأمراء. فلم تمر مائة عام تحت الحكم الإسلامي حتى أضحت أسبانيا (الأندلس سابقاً) جنة فيحاء وبقلة أوروبا للعلوم. ولننظر إلى سوريا كيف كانت تحت حكم القياصرة وما صارت إليه بعد الحكم الإسلامي.

وضربت الجيوش الإسلامية الفاتحة المثل في السماحة والخلق القويم، فكان العرف في الأمم السابقة أن الغزاة إذا دخلوا بلداً قتلوا وذبحوا وحرقوا وخرّبوا كل ما تصل إليه أيديهم، فهكذا فعلت الحملات التتارية والمغولية والصليبية ضد بلاد الإسلام، وما

تقوم به أيضاً تسخير الشعوب لخدمة شعوبها ونهب ثرواتهم وشحنها إلى بلادهم .

أما الفتحُ الإسلامي ، فكان على النقيض ؛ إذ كان جُلُّهم كيفية اصطحاب الشعوب لمسيرة الحضارة الإنسانية، بل وإسهامها فيها، فلا تقعد مكتوفة الأيدي متوقعة على نفسها، وعلى هذا النهج صارت الفتوحات، فلم تصفع كرامة الإنسان وقديسته، ولم تُخرب وتُدمر، على عكس ذلك تماماً؛ مدّت يدها بالخير والتسامح، مما كان له الأثر البالغ على الناس، وفي هذا يكمن سرُّ إقبال الأسباب وغيرهم على اعتناق الإسلام أفواجاً دون ضغوط، أو حملهم عليه .

هذا في الوقت الذي كانت الانقلابات والصراعات تنشب في أوروبا والعالم الخارجى بين شعوبها الكادحة من جهة والإقطاع والأمراء من جهة أخرى، وانحطاط العقل الإنسانى إلى أقصى مراحل التخلف، كانت البلاد الإسلامية مقبلة بشهية مفتوحة على العلم، فتدور فيها المناظرات والردود بين علمائها من كل الأقطار عن كتاب يونانى قديم بين مؤيدٍ لآرائه ومعارضٍ ومتحفِّظٍ على بعضه، أو عن تفنيد لآراء الفلاسفة، أو نشوء مذهب فلسفى جديد .

ورغم وجود اضطرابات داخل الدولة الإسلامية وانقسامها إلى دويلات في الباطن، لم يُنحَ العلم جانباً ليتفرغ الأمراء للصراعات الدائرة، بل ظلوا حريصين عليه، وكان من شأنهم للاحتفاء بالعلماء ما سبق ذكره.

ومن مظاهر عظمة علماء الإسلام: احترام نتاج المعلمين الأوائل؛ فلم ينسبوا إلى أنفسهم أعمالاً لم يعملوها كما حدث من علماء أوروبا إبان عصر النهضة الأوروبية. لذلك يقول العالم الإسلامي الشهير ابن الهيثم: «إذا وجدتَ كلاماً حسناً لغيرك فلا تنسبه إلى نفسك، واكتفِ باستفادتك منه».

ولم يطمسوا حضارات غيرهم بحرق كتبها وآثارها كما فعل المغول ببغداد، فسوى القتل والنهب أحرقوا الكتب وطرحوها في نهر دجلة.. حتى أصبحت مياهه سوداء من مداد الكتب، ولكثرتها كان بإمكان الناس عبور النهر فوقها بعد أن كونت جسراً من المخطوطات التي ظل علماء الإسلام يخطونها ويجمعونها عشرات السنين. وأيضاً ما فعله رئيس الاساقفة الأسباني (أكزيمينيس) بعد خروج المسلمين من الأندلس، فقد أحرق كل ما استطاع جمعه من مخطوطات المسلمين التي تقدر بثمانين ألف كتاب ليمحُوَ ذكرهم من صفحات التاريخ الأسباني إلى الأبد.

ولم يحمد الغربُ جَهْدَ علماء الإسلام، بل تجاهلهم تماماً،
إلا قلةً أبت أنفسهم الانسياق وراء العصبية المقيته العمياء.

وكذلك لم يكن جزاءُ المسلمين لما أسدّوه للحضارة الغربية إلا
كجزاء (سِنمار)، وبدا هذا جلياً إثر ضعف المسلمين بالآندلس
حينما أجبروهم على اعتناق النصرانية، وحتى بعد اعتناقهم إياها
لم يُغفر لهم ذلك، فقد أشار راهب آنذاك بضرب رقاب من تنصّر
منهم أو من لم يتنصّر بحجة عدم معرفة صدق إيمانهم. ولكن في
نهاية الأمر رأوا إجلاءهم نهائياً عن أسبانيا بعد إقامتهم ثمانية
قرون من التقدم والازدهار. وفي الطريق قُتل أكثرهم؛ ففي قافلة
واحدة تضم مائة وأربعين ألف مطرود قُتل مائة ألف وهم في
طريقهم إلى بلاد المغرب.

وهبطت أسبانيا - بعد إقصاء الإسلام عنها - إلى أسفل
درجات الانحطاط في جميع المجالات.

ولقد آثرتُ في هذا الباب عرض نبذة عن بعض علماء العرب
الذين كان لهم باعٌ في ازدهار الحضارة الإنسانية وتقدمها. فمنهم:
جابر بن حيان (منتصف القرن الثامن الميلادي):

يذكر (هوليارد) في كتابه (الكيمياء إلى عصر دالتون) أن
مؤلفات جابر المترجمة إلى اللاتينية كانت عاملاً قوياً في إحياء

الكيمياء فى أوروبا، ولم يحدث أن حظيت كتبٌ بالشهرة والذيع
فى العصور الوسطى مثلما حظيت به كتبه، والتى أصبحت أساساً
للعلم الكيمياء فى أوروبا إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى.

أبو بكر الرازى (أواخر القرن التاسع الميلادى):

هو أول من حضر وذكر حامض الكبريتيك، وسمّاه فى ذلك
الوقت (زيت الزاج). ووضع كتابه الشهير فى الكيمياء (سر
الأسرار) الذى تضمن شرحاً مفصلاً لمنهجه فى البحث والتجربة،
ووضع كتاب (المنصورى فى الطب) الذى ترجم إلى اللاتينية،
وأضحى مرجعاً يعتمد عليه فى تدريس الطب بالمدارس الأوربية
حتى القرن السابع عشر الميلادى، وله عشرات من الكتب التى
ترجمت إلى اللاتينية والتى فاقت المائتى كتاب، وكان الرازى أول
من قال بضرورة تجربة الأدوية على الحيوان، وأول من توصل إلى
استخدام الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح
المفتوحة بعد العمليات، وأول من قام بمعالجة الحمى مستخدماً الماء
البارد، وغيرها من الاكتشافات التى جعلت اسمه شاهقاً.

ابن الهيثم (أواخر القرن العاشر الميلادى):

من مؤلفاته كتاب (المناظر)، وهو أكثر الكتب استيفاءً لبحوث
الضوء، ففيه بحث انكسار الضوء، وتشريح العين، وكيفية تكوين

الصور على شبكة العين. وقد اعترف العالم الفرنسى الشهير (فياردو) أن العالم الطبيعى (كبلر) أخذ معلوماته فى الضوء - لا سيما ما يتعلق منها بانكسار الضوء فى الجو - من كتب ابن الهيثم.

كما استفاد من بحوث ابن الهيثم عدد من علماء أوروبا مثل «روجر بيكون»، وكما قلنا «كبلر»، حتى أضحت نظرياته قاعدة أقيم عليها علم الضوء الحديث.

ابن سينا (أواخر القرن العاشر الميلادى):

أهم مؤلفاته (كتاب القانون)، ظل هذا الكتاب حتى نهاية القرن السابع عشر المرجع الأول لعلوم الطب فى الجامعات الأوروبية؛ ففيه قسّم الأمراض لأول مرة فى تاريخ الطب إلى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية مع شرح كل مرض شرحاً دقيقاً، مفصلاً نشأته وأسبابه وأعراضه وطرق علاجه. كما كان أول من اكتشف مرض الانكلوستوما، وأول من قام بحقن المريض تحت الجلد، وأول من استخدم التخدير عن طريق النباتات.

ووضع مؤلفه الفلسفى الشهير (كتاب الشفاء) الذى يقع فى سبعة عشر مجلداً، مقسماً إلى أربعة أقسام: فى المنطق،

والطبيعة، والرياضه، والعلم الإلهى . ومن خلاله يتضح أن ابن سينا صاحب فكرة الاعتماد على التجربة فى البحث، وقد وضع لها شروطاً تشبه تلك التى نادى بها (جون ستيوارت ميل) من بعده .

ابن النفيس (النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى):

هو عبقرى الطب الذى جعل من معارف التشريح علماً مستقلاً، وكشف أسرار القلب، واكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل (وليم هارفى) بأربعة قرون . ففى منتصف القرن السادس عشر الميلادى نشر الطبيب الإيטالى (الباجو) ترجمة باللغة اللاتينية لأجزاء كثيرة من كتاب ابن النفيس (شرح تشريح ابن سينا)، وبعد ست سنوات على نشر هذه الترجمة ظهرت ثلاث مؤلفات لثلاثة من علماء الطب فى جامعة (بادوا) الإيטالية تتحدث عن الدورة الدموية الصغرى وهم: (ميجيل سيرفتوس) الأسبانى الأصل، و(ريالدوا كولومبو) الإيטالى و(أندريّا سيزاليتو) الإيטالى . ثم جاء (وليم هارفى) الإنجليزى فى القرن السابع عشر الميلادى وكان قد تخرج من جامعة (بادوا) الإيטالية، فوصف الدورة الدموية الكاملة الصغرى والكبرى فى كتابه (دراسات تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم فى الحيوان) ولم يُشر فى كتابه هذا إلى

مصادره العربية أو الإيطالية . وظن علماء الطب فى العالم طيلة سبعة قرون أن (وليم هارفى) هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى .

* وهناك الخوارزمى مبتكر الكثير من بحوث الجبر التى ما زالت تدرس حتى الآن فى المدارس .

وثابت بن قرة الذى نبغ فى الطب والرياضيات والفلك والفلسفه ويعتبر أحد الذين مهدوا لوجود أهم فروع الرياضيات وهو علم التكامل والتفاضل .

وعلى بن سليمان الطيب المصرى الذى وضع أول رسالة فى العلوم عن انقسام الذرة .

ولقد ظل العرب منذ فجر الإسلام وحتى القرن الخامس عشر الميلادى هم الطليعة فى ميدان الرحلات والاكتشافات ، إلى أن انطلقت من أوروبا حركة الاستكشافات الحديثه على يد هنرى الملاح ، وفاسكو دى جاما ، وكولومبس ، وكان قبلهم رحالة عربٌ مثل اليعقوبى ، وقدامه ، والبلخى ، وابن حوقل . ونتج عن هذه الرحلات مراجع جغرافية هامة مثل : معجم البلدان لياقوت الرومى ، وعجائب البلدان لابن دلف بن مهلهل ، والمسالك والممالك لابى عبيد البكرى الأندلسى ، ومروج الذهب للبيرونى ،

و مؤلف ابن بطوطة «تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذى يعتبر من أهم المصادر التاريخية الجغرافية عن حياة الأمم الشرقية فى القرون الوسطى . وغيرها من المراجع الهامة التى سدّت خطى الرحالة ممّن جاء بعدهم .

وما تقدم غيضٌ من فيض ممّن أثروا وساهموا فى تقدم ودفع عجلة الحضارة الإنسانية، وفتح آفاق رحبة جديدة فى شتى علوم المعرفة أمام البشرية .

ولا ريب أن هناك ثلّة من المفكرين الغربيين جاهدوا بقدر عزمهم لإعلان الحقيقة، ونشروا آراءهم صراحة دون مواربة عن فضل الحضارة الإسلامية على العالم . ونختّم هذا الباب ببعض أقوالهم :

برنارد شو: «أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلّم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتّم النجاح فى حكمه ولقّاه إلى الخير، وحلّ مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة» .

جوليفيه كارتلو: «كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول جرى أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً للانتشار الإسلامى، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، وقامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ظهر أثره فى الفنون والآداب والشعر والعلوم،

وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل النور العقلى، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين».

غوستاف لوبون: «إن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافى، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمةً لنا طيلة ستة قرون».

العلامة سيديو: «إن العرب هم فى الواقع أساتذة أوروبا فى جميع فروع المعرفة».

كربنسكى: «إن الخدمات التى أداها العربُ للعلوم غير مقدرة حقَّ قدرها من المؤرخين، وإن البحوث الحديثة قد دلَّت على عظم ديننا للعلماء المسلمين، الذين نشروا نور العلم حينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى، وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق، بل زادوا عليها وقاموا بإضافات هامة».

بونال: «إن الفضل أعظم للعلماء العرب فى الحفاظ على التراث اليونانى وتدوينه والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد برعوا فى ذلك، وإنهم تفوّقوا على الإغريق بأن جعلوا العلم سهلاً مستساغاً، فأقبل الناس على النهل منه، وكانت ميزةً انفراد بها العالم العربى».

الإنسان عدو الإنسان

لا أجد هنا تفسيراً لما يحدث للأمة الإسلامية في العالمين القديم والحديث من معاناة على أيدي أصحاب الديانات الأخرى سوى اعتبارها سنن الحياة تسير فيها، كما سارت على أمم من قبل من أجل رفع راية التوحيد، وإلا فما معنى إبادة شعوب مسلمة مسالمة في فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان والعراق وكشمير وألبانيا وأفغانستان حالياً بحجة محاربة الإرهاب وغيرها، مع إلحاق الفتن والاضطرابات داخل البلاد الإسلامية، ودعم معارضي حكوماتها لأسباب معلومة وواضحة، ناهيك عن الاضطهاد النفسى للمسلمين في بلاد الحرية وحقوق الإنسان.

ومن العجيب - والمثير للحنق معاً - أنهم لا يألون جهداً في الدفاع عن شاذٍّ جنسياً مع اعترافهم بحقوقهم في اللواط وبحقهن في السحاق مع ما فيهما من تغيير للفطرة الإنسانية تحت شعار ما يسمى بالحرية الشخصية، وفي نفس الوقت يقفون في وجه الضعفاء لمجرد مطالبتهم بحقوقهم الإنسانى في بيت آمن يحيطه الدفء الأسرى والحق في الحياة، وينكسون رؤوسهم ويتغاضون

بل ويمدون الوحوش البشرية بكل مقومات الحياة وآلات الاعتداء على الآخرين .

حتى أنه أصبح أمراً مألوفاً أن تجد دبابة فى مواجهة طفل لا يتعدى العاشرة من عمره، أو يُلَكم بقبضات حديدية عمياء، أو يدهس ويركل بالأقدام، أو يقتل دون رحمة، وهذه المشاهد كثيراً ما تناقلتها الصحف وبثتها شاشات التلفزيون العالمية على مرأى من الجميع .

ولا تقوم الدنيا أو تقعد إلا عندما ترتدى فتاةً حجاباً أو زياً إسلامياً محتشماً، فيقولون: ليس هذا من الحرية الشخصية، ولكن هذه عنصرية بغیضة . . هكذا «بغیضة» بسرعه يجدون المبررات حتى يضيفوا على قراراتهم مشروعية .

وتُقصف وتُحاصر العراق ويموت شعبها بالآلاف تحت مسمى إلزامها بقرارات الشرعية الدولية، وتدمر افغانستان ومن قبلها السودان والبقية تأتي، تحت مسمى محاربة الإرهاب، مع أن هناك إسرائيل فى الجهة المقابلة لا تلتزم بقرارات شرعية دولية ولا إنسانية، ولا بميثاق حقوق الإنسان، وخيرُ دليلٍ على ذلك إلقاء نظرة واحدة على الساحة الفلسطينية، ودليل آخر أن يرأس حكومتها سفاح ارتكب أفظع جرائم فى التاريخ الإنسانى، يتساوى بل يفوق هتلر ومن شاكلة .

المهم: نعود إلى موضوعنا، وهو ما يحدث للأمة الإسلامية من ابتلاءات، فقد قلنا إنها سنن الحياة تلقى على كاهل الرسل وأتباعهم عبء التبليغ.

فقد بعث من قبل نوح عليه السلام إلى قومه، ومكث بينهم ألف سنة إلا قليلا يدعوهم لوحداية الله، فلم يجد منهم إلا أذى واستكباراً واستهزاءً به وبمن معه من المؤمنين، وتجراًوا عليه وازدجروه، واتهموه بالجنون إلى أن قالوا له بوقاحة ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُثِرَتْ جِدَالُنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقالوا له أيضاً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وأيضاً سيدنا إبراهيم يتكالب ويتهافت عليه قومه وهم يتصايحون: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وها هوذا نبي الله هود بين قومه يزجرونه ويغلظون له القول ﴿يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وزادوا القول فحشاً: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ثم أعجبته قوتهم وكثرتهم وما وصلوا إليه من حضارة، فأصابهم الغرور والكبر، وقالوا بغطرسة وعنجهية وبأطراف أنوفهم ﴿مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وكان جزاء لوط في سدوم - ويا للعجب - لاستقامة خلقه وترفعه عن الدنيا التي يقتربها قومه وإلحاحه بنصحهم: ﴿لَنْ لَّمْ تَنْتَه يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

ثم هاج سخطهم عليه حتى ائتمروا عليه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولم تكن ثمود أحسن خلقاً ممن سبقهم؛ فها هم يقولون لنيهم صالح: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

ثم عقروا ناقته وهموا بقتله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

ونبى الله شعيب يرى أهل مدين يُنقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويعبدون الأوثان والأصنام من دون الله، فيعظهم وينصحهم، فيقولون له بازدرأ واشمتزاز: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ونبى الله موسى وقومه إذ يتوعدهم فرعون: ﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ

وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿ [الأعراف: ١٢٧].

وأيضاً يلقي موسى من قومه ما لقيه معهم من فرعون، ولم يشفع له ما أسداه لهم حتى خلّصهم من عبودية فرعون، ولم يرعوا علو قدره عند الله، فيقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

والسيدة مريم الطاهرة العفيفة العابدة المتعبدة، ربيبة نبي الله زكريا، يقذفها اليهود بأشنع التهم: بالزنا، وهى من بيت نبوة، مع علمهم بذلك، فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ [مريم: ٢٧].

وقابل اليهود معجزات السيد المسيح الدالّة على صدق نبوته بالكذب واتهامه بالسحر فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وسعوا حثيثاً للفتك به ووضع العراقيل أمام دعوته، والتشهير به كما شهروا من قبله بموسى، ومن بعده بمحمد عليهم السلام. ولم يسلم محمد ﷺ من الإيذاء والتكذيب؛ ف قيل له كما قيل لإخوته الرسل: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ورمّوه بالجنون فقالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وتنادوا فى استصغار شأنه فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وحاولوا مراراً قتله، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره؛ فأمره غالب.

وكذلك الشعوب - أتباع الأنبياء - عانت، فقد عانى اليهود من أجل ثباتهم على دينهم، فسامهم فرعون وجنوده سوء العذاب، ومن العجيب أن لقي أتباع المسيح من اليهود صنوف العذاب حتى يرجعوا عن المسيحية إلى اليهودية عنوة وأعملوا فيهم السيوف وشقوا لهم الأخاديد، وأشعلوا فيها النيران، ثم ألقوا فيها أتباع المسيح حتى قتل منهم ما يقرب من عشرين ألفاً فيما عرف بعصر الشهداء.

ومن بعدهم تدور الكرة على المسلمين؛ فيعذبون على أيدي اليهودية والصليبية حتى يومنا هذا، إنها سنن الحياة، وسبحان من يداول القوة بين الناس من كسير وضعيف إلى قوى وعات، ثم لا تلبث هذه القوة أن تحوّل إلى ضعف وذل آخر، فسبحان الله.

ولا أدري لماذا يكره العالم نفسه ويحمل جُلَّ البغض للإسلام وهو الذى يقر بجميع الرسل والكتب المنزلة من عند الله دون تفريق بين أحدهم؟! فتقول الآية آمرة أتباع الإسلام: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦] أَلَا نَهْ يَحْضُرُ عَلَى
مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي زَمَنِ طَغَتْ فِيهِ الْمَادَّةُ عَلَى كُلِّ الْقِيَمِ وَالْمَثَلِ؟

فَلَمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى مَفَاهِيمِ الْإِسْلَامِ وَيَأْخُذُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا بَدَلًا
مِنَ الْغَوَاثِيَةِ وَالتَّشْوِيهِ الَّذِي يَبْثُ الْإِعْلَامُ الصَّهْيُونِي؟

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحَضْرَةِ عَلَى الرَّفَقِ فِي الدَّعْوَةِ:
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

أَفَلَا يَطِيلُونَ الْفِكْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
(١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ
كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
[الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

وَفِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَالرَّقْيِ بِالسَّلُوكِ الْعَامِ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا

فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿[النور: ٢٧ ، ٢٨]﴾ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿[لقمان: ١٨ ، ١٩]﴾ إِنْ تُبْذُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿[البقرة: ٢٧١]﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿فصلت: ٣٤]﴾ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴿[النور: ٢٢]﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿[الأعراف: ٥٦]﴾

وهناك آيات لا حصر لها في القرآن الكريم نزلت لتقوم الأخلاق وتضع الحدود لسلامة البشرية وصيانتها. لذلك يقول الله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ويقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]. ثم يقول ناصحًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

وبعد هذا العرض الموجز، أفلا يتدبر هؤلاء الذين ينعنون
الإسلام بالوحشية؟ أفلا يعدلون بعد وقفة مع النفس والروية؟
ولكم أرجو أن تصم الآذان - مع هذه الوقفة - حين من الوقت
عن الإعلام المستهدف، وعن هذه النظرية القميثة: نظرية الكاتب
هتنتجتون - الصراع بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، والتي
أطلق عليها تمويهاً وتلطفاً: صراع الحضارات - والتي ترمى إلى
إيجاد عدو بعد الشيوعية؛ لتجعل الشعوب الغربية دائماً في حالة
استنفار، وفي حالة تعبئة، وفي حالة صراع نحو التقدم، ولتوليد
الحمية الوطنية داخلهم، ومن ثم العمل دون كلل حتى لا يفوقهم
عدوهم. نعم لقد أوجدوا لهم عدواً وهو الإسلام، ونجحوا في
ذلك، ولكن قد يخسر الغرب الكثير لانسياقه وراء حفنة من
المفكرين المأجورين.

وأخيراً.. كيف ترون الإسلام؟ ننتظر الإجابة.

المراجع

- ١- الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري - مكتبة التقوى .
- ٢- إسرائيل بين البداية والنهاية - د. محمود دياب - مكتبة الأنجلو المصرية .
- ٣- منهاج المسلم - أبو بكر جابر الجزائري - مكتبة الإيمان .
- ٤- فقه السنة - الشيخ السيد سابق - الفتح للإعلام العربى .
- ٥- مكاشفة القلوب - لأبى حامد الغزالى - مطبعة الأنوار المحمدية .
- ٦- إحياء علوم الدين - لأبى حامد الغزالى - دار الريان للتراث .
- ٧- دليل الفالحين - لمحمد بن علان البكرى المكئى - دار الحديث .
- ٨- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - المكتبة القيمة .
- ٩- منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمع - د. عبد الحليم محمود - الهيئة العامة للكتاب .
- ١٠- هموم الأمة الإسلامية - د. محمود حمدى زقزوق - الهيئة العامة للكتاب .
- ١١- علماء العرب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٢- علماء العرب - أ. سليمان فياض - مركز الأهرام للترجمة والنشر.

١٣- حضارة العرب - غوستاف لوبون - الهيئة العامة للكتاب.

١٤- دولة الإسلام في الأندلس - أ. محمد عبد الله عنان - الهيئة العامة للكتاب.

١٥- معاً على الطريق - أ. خالد محمد خالد - الهيئة العامة للكتاب.

* بالإضافة إلى دوريات ومقالات وبحوث نشرت بالصحف.

فهرست

صفحه	الموضوع
۳	من كتاب الله
۴	إهداء
۵	مقدمة
۱۷	النبي والرسالة
۲۷	إسلامى معناه
۳۵	إسلامى رحمة وسلام
۵۱	إسلامى حسن الخلق
۶۹	إسلامى والمرأة
۷۹	إسلامى شورى
۸۳	إسلامى يبحث على الفكر والعلم
۹۳	إسلامى حضارة
۱۰۷	الإنسان عدو الإنسان
۱۱۷	المراجع
۱۱۹	الفهرست



الكاتب والكتاب

* الكاتب :

- من مواليد محافظة أسوان عام ١٩٧٣ م .
- صدرت له من قبل مجموعة قصصية بعنوان (الفوارس) عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .
- له تحت الطبع مجموعة قصصية بعنوان (سلام الحمام) ورواية بعنوان (غداً تغرد العصافير) .

* الكتاب :

يتصدى للنظرة الغربية الشائعة عن تخلف الإسلام، ويوضح موقفه من عدة قضايا تثير الجدل منها: الشورى، والمرأة، والحضارة، والإرهاب، والعلم، والفكر .

رقم الايداع : ٢٠٠٢ / ٢٠٠٢/١١٤١٠

الترقيم الدولي 7-431-241-977 I. S.B.N